

SABRI

HARIB MIN AL-ZULM

$$\begin{array}{r} 2274 \\ 771 \\ \cdot 343 \end{array}$$

2274.771.343

Gabrī

Hārīb min al-zulm

[illegible]

ادمون صبري

فارس من الفخ

أقاصيص أسانية

ساعت وزارة المعارف على نشره



32101 048347825

Sabri, Admün

الأوسون صبري

مع تحيات
اتحاد الأدباء العراقيين

Hārib min al-zulm

هَارِبٌ مِنَ الظُّلْمِ

أَقاصيصُ نِسائيّة

سأعدت وزارة المعارف على نشره

(RECAP)

2274

1771

1343

هارب من الظلم

لم أكن أدري أي شيء عن الرجل الذي يسكن جوارى ولم أكن أدري أية حرفة يحترف ، فقد لقيتُه مرة او مرتين يجتاز الممشى الضيق حاملاً على كتفيه بساطين صغيرين يلتمس بيعهما في المدينة الصغيرة أسوة بالباعة المتجولين ، ولقيتُه بعد حين يحمل الى غرفته كيساً من الباقلاء سرعان ما صار كل مساء يسلق كمية منها في قدر صغير لبيعه الى صبيان الازقة : فقلت لنفسي لعل الرجل أبدل عملاً بعمل ، فقد انقضت أشهر الشتاء وقلت حاجة الناس الى البسطة .

كان قليل النوم ، فغالباً ما أجد مصباح غرفته مضاء حتى الساعة التي تسبق منتصف الليل ، ويغلب على ظني أنه يقرأ او يدون شيئاً ما على الورق ، ولكن ما هو ذلك الشيء وما أهميته ، وعلام رجل مثله شبه عاطل يسهر من أجل أن يقرأ أو يسود اوراقاً ، وحياناً يغيب عن المنزل بضعة أيام ويعود فجأة في الفجر او مع الليل ويستأنف عمله في الصباح دون ان يبدو عليه أنه قد سافر الى جهة بعيدة .

ولو كنا نعيش في جو مسالم هانىء لما وجدت في الامر كله تعقيداً اوربية،

ولسعيت للتعرف على جاري والتماس صداقته ومحبته ، غير اننا كنا نعيش في جوراعب مقيت مشحون بالخيفة والتوجس وتوقع الشر حتى من الاحبة والاصدقاء ، اذ كانت ايام عصيبة شددت فيها سلطات الحكومة البائدة مراقبتها على الفارين ومطاردتهم في كل مكان اثر مظاهرات كبرى قامت في انحاء البلد تنادى بسقوط الملكية والاستعمار والدعوة الى حكومة جمهورية ديمقراطية شعبية ، وبعد ان فتكت السلطات بعشرات المواطنين وصرعتهم برصاصها قامت بحملات هستيرية لالقاء القبض على آلاف الاحرار وزجهم في المعتقلات . وقد بلغ الى علمها ان كثيراً منهم قد التجأ الى الفرار والاختفاء في امكنه منعزلة ، فأوفدت جواسيسها للبحث عنهم .

كنت قد فررب متخفياً في زي تنكري ، ضارباً في أرض بعيدة ، مخلفاً ورائي بلدتي الحبيبة الباسلة مطوقة بطابور ضخيم من شرطة الحكومة البائدة ، قد سدوا منافذ الطرق كلها ومنعوا عن الناس الماء والطعام والسفر حتى يسلموا اليهم قادة الحركة ومدبريها بغية اعدامهم . ولقد شهدت بعيني مصرع مناضلة جريئة أبلت اعظم البلاء ، وهي امرأة لا تقرأ ولا تكتب ، كانت تتنقل بين سطوح المنازل تسقى المقاتلين الماء بمشربة كيما يتزحزحوا لحظة عن مواقعهم . كانت تهزج مثل بطلّة من بطلات طروادة يثر الرصاص من فوق عصابتها هازئة مستبسلة ، تسخر بالحكومة الخائنة المأجورة التي تريد كتم انفس الاحرار ، وكانت نهايتها طلقة واحدة اخترقت صدرها فتهاوت المشربة من بين يديها وانسحق ماؤها ، ثم خرت هامدة تلعن الظلم والظالمين . لقد كانت شهيدة . كان الحال اشبه بما يفعل البرابرة والغزاة في حصار المدن في العهود

الغابرة ، وقد بلغ علمي ان بلدتي قد سقطت بأيديهم وعملوا في ابنائها
تتكيلاً وتعذيباً وصادروا منهم كل ما يملكون من ادوات المقاومة وقد جاءوا
بجهاز غريب مفرع يطلق عداً مشؤوماً يرشدهم الى مكان السلاح المدفون
في قعر الانهار ، فالتقطوا بواسطته الفؤوس والبنادق وسواها ، ونصبوا
مشنقتين شاحنتين في ساحة البلدة قبل ان تبدأ المحاكمات الصورية ، واعتلى
هاتين المشنقتين ببسالة شابان من اطيب ابناء البلدة خلقاً واعظمهم ثورية .
لكم بكت الاعين ولكم اطلقت الحشرات . احداث مؤسفة تنغرز نبالها في
حبات القلوب . اذ لسنا نقاوم عدواً غريباً يغزونا بخيله وبرجاله فنفخر
ببسالتنا ، انما اناس من اخوتنا واهلينا ، ولكن قوى الظلم سخرت نصف
الناس ليطعن النصف الآخر ويزهق روحه ويدك عظامه ثم يشمت
بزهو وافتخار .

كنت قد اصطنعت عصا غليظة ادعاء بعرج مزعوم معتمراً منديلاً
اخفي به معالم وجهي . اما الذي يسكن جواربي فقد اقلقني ايما قلق ، اذ انني
لم ألتف معه وليس ثمة احتمال في مصاحبته ، فقد بدا نفوراً مرتاباً مظلم
الاسارير ذا عينين كسيتين معذبتين يشكو بهما فاجعة تجل عن الكلام ،
ورغم انه لم يكن عجوزاً ولا اشيب الا ان وجهه القاتم يحفل بتجاعيد عميقة
وكأنه شيخ قد أناف على السبعين .

كان يفصل بيني وبينه من الداخل نافذة مستطيلة تبلغ ذروتها
المستديرة قريباً من السقف ، وهي نافذة مزعجة لاتفسير لسبب وجودها ، كنت
قد اضفيت عليها ستارة سمكة مسدولة بطولها ومثبتة بالمسامير ، كما اضفى

عليها هو الآخر ستارة من ورق خشن يصطنع للف الحاجيات في الدكاكين
 غير ان الضوء كان يتسرب في وهج اصفر ينتشر على الستارة والورق معاً
 فيستطيع كلانا ان يعرف ان كان مصباح جاره مضاء ام مظفي ويستطيع
 ان يعرف ان كان نائماً ام مستيقظاً ، وان كان يعمل شيئاً ام مخدأً للراحة
 وحتى خفيف القماش وخشخشة الورق والتنفس في ساعات النوم ممكنة السماع.
 كانت حريقي معلقة بقصبة هزيلة تؤرجحها الريح ، فان اكتشف
 أمري تناولتني السلطات اجفى تناول ، واذاقتني الوان العذاب وزجتي في
 غياهب السجن ، وقد فرض علي هذا الظرف العصيب الشاذ ان ابالغ في
 الحذر مبالغة تتجاوز احياناً ما يقتضيه الاحتياط والتدبر وهذا ما ملأ قلبي
 شكاً من الرجل الذي يقيم الى جوارى ، فقد رمقني غير مرة بنظرة فاحصة
 ناقبة من عينيه غير الموانستين في شبه لمحات خاطفة متلصصة وكأنه يزنني او
 يقيس طول ذراعي ، قلت لنفسي لعله من اولئك الجواسيس اللذين تستخدمهم
 السلطات لتعقب الفارين ، واني قد اقع في ورطة . وذات يوم عدت مبكراً
 الى غرفتي فلم يكن الجار قد عاد بعد ، فأزحت الستارة وتسلفت شبك النافذة
 حتى ذروتها ونقبت عن ثقب اختلس منه النظر فلم اعثر على ما اريد اذ كان
 قد سترها جميعاً بدقة متناهية ، فجرات ومددت اصبعي محدثاً ثقباً صغيراً
 لا يزيد حجمه عن حجم الفلس ، وانعمت منه النظر . كانت غرفته صغيرة وفي
 غاية الاهمال ، يتوسطها سرير ضيق من تلك الاسرة التي يألفها المرء في فنادق
 الريف . يعلوه فراش خفيف مدعوك ، في جانبه القصي وسادة كبيرة مخسوفة
 في وسطها وكأنه يضع رأسه فوقها من غير حراك ، وكان ثمة دفتر على شيء

قائم مقام منصدة ، وبضعة كتب لم اتبين عناوينها ، وزجاجة صغيرة تحوي مادة يطل بها الوجه لكسب التجاعيد ، وتستخدم عادة في تمثيل ادوار الشيخوخة ، وقطع من ملابس مختلفة لاتلبس في مناسبة واحدة . ادركت ان الجار متنكر ، ولكن لأي سبب وما معنى التجمعات على الوجه وعلام هو هنا يبيع الباقلاء لصبيان الازقة ، أنلك هي حرقه يرتزق بها رجل يقرأ ويكتب ، فعدت الى مكاني افكر ملياً في أمره ، ثم انتهيت الى قرار لم اجد افضل منه ساعتئذ ، هو ان اتعجل بالرحيل قبل ان تطلع لي مشكلة جديدة ، فقممت الى الشارع باذلاً جهدي ان ابدو في تمام عرجي ومرضي كيما اتفحصه عن كتب وأدرس امائر وجهه لعلني أحسب سبب وجوده في المدينة ، غير انني لم اصادفه ، فصرت اضرب في الازقة على غير هدى نافذاً من زقاق مدجاً الى زقاق آخر ، حتى كلت قدمي وعدت في الليل فلقيت في غرفته دون ان اتبين ما الذي يفعله ، ولحظت في انشده انه قد أصلح الثقب في النافذة بعناية المحترس المبيت اموراً جسيمة وانه من غير شك قد اخلس النظر الى غرفتي ورأي الى اشيائي وبعض كتي الملقاة على الارض . تيقنت ان وجودي هنا اضحى مخفوفاً بالخطر وأن هذا الجار ان كان جاسوساً حقاً فقد اكتشف امرى وتعين عليه منذ اليوم ان يواصل التحقيق عني في الخفاء ويجمع عناصر الاثبات لانزال ضربته القوية الساحقة ، فهبطت السلم على عجل وقصدت ربة البيت فلقيتها في غرفتها الصغيرة المحاذية الى الباب تنصت الى راديو يعمل بالبطارية فدنوت نحوها هامساً - انني اعتزم السفر صباح الغد واليك ، اجرتي - فأنفخر فمها دهشاً وسألت - هل اتما على اتفاق ولم تتبادلا التحية في يوم؟ -

قلت من تقصدين ؟ فاوامأت الى غرفة الجار وقالت - انه الآخر دفع لي اجرتي
ويعتزم السفر غداً الى مكان لم يشأ الافصح عنه . قلت لنفسى - الملعون يريد
ابلاغ السلطات واصطحاب نفر من الافراد السريين لاعتقالي وليكني ساسافر
في الفجر من غير عصا ولا تظاهر بالعرج .

امضيت ليلتي قلقاً اشد القلق منتظراً في اية دقيقة ان يفتحم غرفتي
شاهراً مسدساً على النحو البوليسي المألوف مخاطباً اياي بجفاء وخشونة : هيا
الى مركز البوليس ، كان يعطس في بعض الاحيان كمن يتعرض أنفه للغبار
ويذرغ الغرفة في خطوات متسارعة تؤذن بالانفعال ويزحزح بعض الاشياء
عن مكانها . وهكذا مضت ساعات الليل حتى تألق ضوء الفجر اللؤلؤي في
صباح الرابع عشر من تموز فهممت أن احمل حقيتي واتجه نحو السليم واذا
راديو ربة البيت يفاجأنا بالثورة الجبارة العارمة ، فانصت الى البيانات الاولى
وموسيقى المارش ونبرات المذيع الرنانة الطلقة المبهجة . انها لحظات من
العمر تضع حدوداً بين الاجيال ، تفصل الماضي عن الحاضر . الماضي النعس
المظلم المغرق في الكآبة . ماضي الجوايسس وخونة الضمائر وارباب المكائد .
واننا منذ اللحظة غدونا نستطلع الى المستقبل .

تسمرت في مكاني مذهولاً انصت الى اذاعة الجمهورية العراقية :
بلادنا غدت جمهورية ، حلم الاحرار الطيبين . اولى الخطوات لتحرير البلاد ،
القضاء على السلالة المقيمة المأجورة . هتفت ربة البيت في جذل ايها السيدان
انصتا ملياً ان حكومة جديدة قد قامت في البلاد واردفتم هتافها بهتيلة ثاقبة
تجاوبت مع تهليل اخرى من بيوت الجيران . ما الله ما اشد فرحي لقد ولدت

من جديد ، فان قضى الشعب في بغداد على رؤوس الخيانة فأني اؤدي واجبي تجاه
هذا الجرذ الذي اعتكف في غرفته حتى هذه اللحظة ، وفجأة وعلى غير توقع
البته اصطفق الباب بعنف بالغ واندفع فوق السطح كالعاصفة . خرج يتهددني
بقنينة طويلة العنق ، فشهرت عصاي في وجهه لاشج بها رأسه وكادت تقع
معركة الا انه هتف في صوت عميق مدو - عاشت الجمهورية الموت للخونة
والجواسيس - كان هتافه شائعاً كمن اعتاد ان يهتف في المظاهرات فيغرق
صوته سائر الاصوات .

اي شيء هو هذا الرجل ؟ تطلعت اليه مشدوهاً فبدأ لي انه قد تغير
بالمرة ، انه لم يعد هو نفسه ، مخلوق آخر جديد اراه اول مرة . لم يعد جاري
المكتب الصموت الباعث على الريبة والتوجس . انه مخلوق فرح قوى
متفائل مليئاً بالعزيمة يكاد يطير من شدة ابتهاجه .

تقدمت الى (درابزون) السطع ملقياً بعصاي بشدة على الارض
رافعاً صدري عالياً كما يفعل الديك قبل ان يطلق صيحته في الفجر - عاشت
الجمهورية الموت للخونة والجواسيس عاش نضال الاحرار عاشت الشعوب .
ثم اتجهت نحوه وانا اخرج شهبقات متلاحقة دمعت لها عيناها فمددت
يدي الى طولهما معتزماً ان احتضن الجار احكم احتضان ، فتصافحنا بحرارة
وبقوة بل كاد احدهما ان يسحق اصابع الآخر في قبضته . صاح بي في انفعال .
- انت ايضاً ؟ فأجبت

- اجل مثلك هارب من الظلم

ثم انطلقنا سوية الى الازقة ورية البيت تصفق لنا وتبتسم ومضينا

متشابهكي الاذرع نخترق الازقة بين زغردات النسوة تهاليلن ، نعانق الناس
والناس يعانقوننا ، لكم كان الشعب يحس بثقل العبودية ، لكم كان يتألم
ويشقى ، لكم كان صبره عظيماً متجاوزاً ، ولكم كان حكيماً في كتم مشاعره
انه قد ادخر طاقة كبرى لمثل هذا اليوم ، طاقة لا يثلم شوكتها المستعمرون كافة .
وفي الليل جلسنا نتعشى سوية . اقترحت ان ارفع الستارة عن النافذة
وان يرفع الورق من الجانب الاخر . قبل ان نبدأ بتناول الطعام فقبل الاقتراح
بسرور بالغ وهو يستشعر الاسف لبقاء مثل هذه الحواجز بين الناس الطيبين .
تمزق الورق بعنف ، وجذبت انا الستارة وطويتها ورفعنا النافذة وشرعناها
فصارت تبدو الغرفتان وكأنهما غرفة واحدة ، ولم تستطع ربة البيت ان تقاوم
ضحكاتها المرححة كلما تذكرت ان كلينا كان يحسب جاره جاسوساً يحذر
وشايته وبسبب من هذا الحسبان كادت تخسر نزيلين صامتين هادئين وديعين
لكم هي الحياة لطيفة باسمة في جو الثقة والمحبة والصراحة .

يوم عسر

كانت الريح تتعاضم في كل ثانية ، باردة جليدية تلطم اجساد الناس المتخفي من الثياب بسبب الفقر بعنف متزايد . ان الميسدان فسيح لها كما هو يفسح أمام الخيول المنطلقة في ساحة السباق ، وهذا الميدان هو حشد من البيوت الحصرية المسقفة بالقصب فوق ارض وسخة رثة موحلة يغمرها الفيضان كل عام ويرمي اليها سادة المدينة قاذوراتهم ومياه بلايهم . ارض مهجورة عفنة لم يغامر بها ارباب الاملاك ودهاقنة المال والجشع بحجارتهم وحديدهم ، بل تركوها مربلة كبرى للادميين التعاء العبيد .

ان زئير الريح يعلو مثل عواء مشؤوم تطلقه اشداق آلاف الذئاب اضربها الجوع وخسف بطونها . وراح القوم الحفاة المهلهلون باسمال داكنة غبراء والملوحة وجوههم بالشمس يتفحصون اعمدة بيوتهم خشية السقوط والانيار .

وها هي جبرية قد حذت حذو الآخرين ، افزعها الريح واهاجت سكينتها فاطلت برأسها من باب الكوخ ان كانت تلك الصفيحة المثقبة المنخورة من حطام الاسطبلات تصح ان تسمى بابا ، فصفعتها الريح واطارت

عصبتها وعصفت بخمارها الاسود ذى الدوائب الناعمة ، كما عبثت بثوبها
فشدته من جانب حتى انتفخ كحب الماء وضغطته من جانب آخر فالتصق
بجسدها الناعم النحيف ، فطرفت بعينيها مغممة - انه ليوم عسر - لم يعد
كاسب وميعاد اوبته قد تجاوز نحو ساعة من الزمن ، كانت وحدها في ذلك
الكوخ تحيا مع زوجها حياة العرائس ، قالت لنفسها فيما هي تسوى اطراف
ثوبها المتطاير - على أمر آخر قد وقع -

كان ذلك الامر الذي وقع هو الاضراب الذي اعلنه عمال السيكابر
الذي يعد كاسب في عدادهم . كان اضراباً محكماً شهدته جبرية نفسها . اعتصم
العمال بجدران المعمل واطلقوا من حناجرهم القوية صيحات الغضب والنقمة
على اولئك الاسياد الذين يملكون المعمل ويجنون ارباحه ويسومون عماله
الهوان والذل . وانتهى الاضراب كما ينتهي كل اضراب آخر ، باستدعاء
حفنة من الشرطة المسلحين تضرب نطاقاً حول المعمل وتسوق مدبري
الاضراب الى السجن . واليوم ما عسى الامر يكون ، هذا الذي خطر لها فيما
هي ترد الباب وتدلف الى قلب كوخها . تطلعت الى سريرها الكبير المصنوع
من خشب الصناديق ولحافها القرمزي من قماش المسلمين ووسادتيها المدورتين
المحشوتين بالريش زيادة في الراحة والتنعيم ، ثم هذا الشيء الاخير الذي لم
يطلق عليه اسم مناسب بعد وقد تطور في بيوت الاغنياء فدعوه بمائدة التوايت .
هذا أيضاً كان جديداً منقوشاً على واجهته صور الملائكة المجنحة وفرسان
شاهري السيوف ونساء غامضات الهيئة . هذا كل شيء في اثاث الزوجين
المتحابين الذين ينعمان بالاشهر الاولى من حياتهما الزوجية .

تقضت نصف ساعة والريح لما تبرح عنيفة جياشة ، ثم تهادت سحابة
سوداء مدلهمة غطت جانباً كبيراً من السماء . شرعت تساقط قطراتها في وهن
وكأنما لتمتحن متانة الأرض قبل أن تصب عليها وابلاً مدراراً .

تلفعت جبرية بعبائتها وانتعلت نعلها بقدمين مخضبتي بالحناء ثم
أحكمت باب كوخها وانطلقت في الطريق الموحد المنقوع بالمطر والمحدد
بآلاف الحفر . كان بعض أرباب الأكواخ يعجزون الطين في ذلك المهبط
العظيم ويفرشونه فوق السطوح وشرع قسم آخر يوقد النار بقرص السرجين
اليابس فغلت أباريق الشاي وبقيت القدور بالكروش والمصارين . ان
احتمال وقوع حرائق صغيرة متوقع في مثل هذا اليوم العاصف ، فطالما أتت
النار على كوخ هذا أو ذاك من الناس فأحالتهم إلى رماد . ثم تهادى القطار
متعرجاً من الشرق ينفث دخانه ويلهث من التعب ، ومن ورائه عربات النفط
سود وبيض . كان يطلق صغيراً حزيناً يوقظ في النفس حرقرة الوداع ، كل
هذا الذي يحمله نفطاً يضخونه من جوف الأرض ويملاؤن به سفناً تمخر به
البحار ويتبقى السرجين لما لكي النفط وأهله البائسين .

تسلقت جبرية الهضبة التراية التي تفصل عالمها . عالم البؤس والجوع
عن عالم القصور والرفاه والحدائق ، واذ ما بلغت المعمل الشاهق الجدران
لمحت وجوهاً تتطلع من النوافذ وأخرى مشرّبة من الاعالي وثمة خلوقاً
صدوحة الصوت تزار في جلجلة من أعماق المعمل . كان كاسب قد تشبث
باحدى النوافذ يستطلع الطريق ، فقد نفذ جبرية في اية لحظة فتراه معتصماً في
المعمل يضطرب في غرفه ودهاليزه كما يشتهي فليس اليوم مراقباً ينهره ولا

سيداً يعنفه ، قد عطل الآلات كلها واخرسها من جيشانها الرتيب المدوي عاجلاً كل شيء حديداً هامداً لا يقوى حتى عن نفض الغبار عن جسده ، بل هو نفسه لم يكن يصدق ان الآلة الجبارة المنتزعة لطاقة آلاف الاذرع تجمد وتموت .

كان نفر من الشرطة يتوافدون مدججين بالسلاح وقد لاح العزم على جباههم . ان مشهد البنادق المروع ولا سيما وهي محمولة بأيدي مدربة خبيرة ، فارتاعت جبرية ولطمت خديها الاسمرين ، المنقطين بالوشم حتى صرخت واعولت ونادت زوجها في هلع - كاسب كاسب ما الذي تفعله هناك أن كوخنا لبيدو كثيراً من دونك تعال نعود سوياً - فلوح لها بكفه أن تعود وحدها ، ولكنها لم تعد بل لوت ركبتيها قرب جدار ما وقرصت على الارض شاخصة أبصارها في لهفة الى النافذة التي يطل منها وجه زوجها .

تضاعف اللغط وتجمهر أناس آخرون يرقبون باهتمام ماسيسفر عنه هذا المشهد الفريد . الشرطة طوقت المعمل ومنعت عن المضربين الماء والطعام ، ومضت ساعة اخرى فانقطع تهطل المطر والتمعت برك الماء وخفت وطأة الريح ، غير انها غدت أكثر برودة ، ثم انتصف الليل وخلا الطريق من المارة ، وما زال الزوجان يتحاضنان بالاعين ، فأخذت جبرية سنة من الكرى فغفت ، فتقدم اليها أحد الحراس وهزها من منكبها فأفاقت لحظات ومضى الحارس ثم غفت **كرة** اخرى ومشهد الشرطة بينادقهم يلح في ذهنها راسماً صور الموت المرعبة . . وها هو الفجر الرطب قد انبلج ، جميلاً باسماء على ارض يشيع فيها التوتر والارهاب والرعب ، في جو مثل هذا يفرح مالكي المعمل

وأربابه اذ يعمل على تقويض معنويات المضربين واستسلامهم . أقبل معاون
شرطة ضخمة متين البناء مرسل الشاربين مدرباً خبير تدريب على قهر الاضرابات .
أقبل وهو برم متضجر من استمرار الاضراب كل هذا الوقت الطويل وهم
في اعتباره زمرة هزيلة متصعلكة ترسل طينياً مزعجاً ! حذرهم بصرت حازم
يليق برجل الامن الحامي لمصلحة الطغاة - ايها المضربون الهدامون الخارجون
على القانون افتحوا الابواب وإلا اقلعناها وضربناكم كما تضرب الحمير -
فأوقدت كلماته نار الغضب في صدور المضربين فرددوا صيحة مدوية - فليسقط
الارهاب وليسقط الخونة والعملاء ، والموت لمصاصي الدماء أجيئوا مطالبينا
اجوراً أعلى وايقاف الفصل الكيفي - .

تجمهر عسدد آخر من الناس فاضطرت الشرطة الى تفريقهم بعنف
وردد المضربون هتافاتهم مررات ومرات ولوح بعضهم من سطوح المعمل
شعارات كبيرة كتب عليها - الموت للحكومة المأجورة عميلة الاستعمار ، عاش
نضال الشعب -

فضاق معاون ذرعاً وفقد صبره وبدأت عروقه تنتفخ بالدم فاوعز الى
اتباعه الشرطة أن يقتلع باب الكبير فتقدمت اليه أكتاف متلازمة ومتلاحمة
ترحزحه عن مكانه حتى ترنح وانكفاً عند اقدامهم في رنين اصم ، فتدافعوا الى
الداخل كعصابة ضارية متمرسه بالاجرام والفتك ما خيل للمتجمعين ان اشلاء
المضربين قد تتناثر بعد دقائق ، فلطمت جبرية خديها واعولت فزعة مصعوقة ،
ودام الانتظار الرهيب نحو نصف ساعة حتى انتهى الاضراب في تراجيدية
مبكية ، فقد سيق المضربون في صف طويل من الجرحى والعرج والمعصوبي

الاعين قد استحال اطمارهم الى خرق متدلية ممزقة يعلوها الطين. والغبار
والدماء والزيت كأسري حرب ضاق بهم العسود أشد الضيق، وغدت عينا
جبرية تأخذان بالاتساع واجهشت في لوعة حين خرج آخر مضرب فهدس أحد
المتجمهرين : أن ثمة قتل واحد .

وقد صدق هذا الزعم حينما أقبلت سيارة الاسعاف البيضاء النافخة
ببوق الموت المرعب وشقت طريقها حتى تسمرت عند باب المعمل . ان شيئاً
عديم الشكل مهدل الاطراف مشجوج الرأس في حذاء واحد وجنوب ممزق
وجيوب مفتوحة الى الخارج ينقل الى السيارة ، ثم تبع هذا الشيء شرطي يبدو
عليه الالقاء يؤرجح حذاء الميت بطرف سبابته والتمى به في جوف السيارة .
اعولت جبرية احوال الرعب ولطمت خديها وسفحت الدموع ولكن لامن
سامع ولا من مجيب .

هنا وهناك

كل عام وفي أوائل شهر تموز تنأهب اسرة محمود للسفر الى بيروت . في مثل هذا الوقت يكون السيد محمود قد ابرم عقوداً جديدة مربحة لأملاكه في المدينة واستحلب من الفلاحين العاملين على أرضه بضع مئات من الدنانير وبذا يستشعر السعادة التي يتوق إليها أرباب الأعمال وأسياد الريف الغارقين في الترف والنعمة والبجوحة .

وفي بيروت تخلد الاسرة الى الاستمتاع والراحة في مصائف المدينة العامرة الخضراء . ينشققون هواء الجبل المنعش ويكحلون أنظارهم بمرأى البحر المتلاطم الهدار تمخر في عبابه السفن الضخمة ، ثم يعودون في آخر ايلول وربما في منتصف تشرين الاول حيث لا تبقى من حر الصيف باقية . يعودون بحقائب مملوءة بالاقمشة والفساتين والشالات والاعطية والعطور والمناديل وبوجوه تطفح بالصحة والبشر واجساد نابضة مثقلة بالشحم .

كان رغدان يقوم على حراسة قصرهم المنيف . وهو قصر شاهق متسع الجنبات مؤثث بأفخم الرياش تطل شرفاته على حدائق البارك من الجانب الواحد وعلى عاصمة البائسين من الجانب الآخر . ورغدان من العاصمة نفسها . شاب وديع شهم قوى العضل ذو بشرة سمراء مسفوعة ، يتمتع بثقة السيد محمود ومحبة ولا يبخل عليه ببذلاته الموشكة على الاستهلاك .

في هذا العام اختلف الامر ، فمنذ نحو ثلاثة أشهر والمناقشات الحادة

تدور في أرجاء القصر والاحتجاجات تطبع وجوه افراد الاسرة جميعهم .
فعلاء الابن الاكبر للسيد محمود المنهي دراسته الثانوية في هذا الصيف قد
أصر بشكل لم يسبق له مثيل ان تتخذ الاسرة سبيلها الى اوربا ، قال في حدة
وقد شاع الدم في وجنتيه النسويتين « اتنا لسنا رهباناً لنقيم في اديرة بيروت ،
نأكل ونشرب ونحملق في البحر ، أريد أوربا بلاد الملذات والفن » اما
بلقيس الزوجة الجميلة المنعمة والتي تشكو ادواء خيالية فقد انضوت تحت
راية العصيان واعلنت في صراحة انها تعتزم التماس العلاج على أيدي جراحي
اوربا العظام . ويسدو جلياً ان احتجاج الابن والزوجة ما كان له ان يتطور
ويشتد لولا ان رب الاسرة قد اغتصب اراض شاسعة من فلاحين صغار
معدمين عجزوا عن ايفاء ديونهم .

وفي ذات مساء من امسية تموز شدت الاسرة رحالها مغربة بسيارة
فخمة واسعة مبردة الهواء ، وفي جيوب السيد محمود بطاقات سفر الاسرة
بالبحر على ظهر احدى السفن الراسية في ميناء بيروت . في صباح اليوم عج
القصر بنشاط السيدة بلقيس وحماسها المفرط ، فأحكمت قفل الابواب
والخزانات والجواريب وغيبت حليها ومصوغاتها في حرز لا يدركه اللصوص
وألقت على رغدان محاضرة حقيقية في اصول الحراسة ومراقبة الممرات
واجتناب النوم الثقيل والاتباه في الليل والنهار ، ولم تنس ان تطلب اليه رعاية
الحديقة وسقي الاوراد النادرة وتنمية الشجيرات الصغيرة وتزويد كلب
الاسرة المحجب بالماء والطعام وتفقد شؤونه واحواله ، وامرته في تحذير ان
ان يولي اهتماماً خاصاً بالسيارة المودعة في الكراج .

كانت سيده حسيمة راجحة العقل تتصف بالجد والمهابة والتسلط .
وتقديرأ لنباهة رغدان وشجاعته انعمت عليه باحدى بدلات زوجها . وكانت بذلة

مستهلكة واسعة الادران مسترخية الكتفين فضفاضة السروال، وزودته بحذاء من احذية علاء في الربع الاخير من عمره . ووعدته بمكافأة حسنة ان احسن الحراسة وجنب القصر غزوات اللصوص .

في المساء انطلق رغدان الى بيت ابويه مجتازا القصور الفخمة ذات الحدائق والشرفات والاراجيع وانتهى الى الازقة الوسخة التي تقود الى منحدر السدة الترابية .

كان باعة الخضر والمرطبات يودعون عندها عجلاتهم اليدوية في مريض كبير يحرسه رجل يتقاضى عشرة فلوس عن كل ليلة . اذ لم يكن في وسع هؤلاء الباعة المتعبين دفع عجلاتهم فوق الهضبة الصعبة المرتقى فها هنا يدفعون ضريبتهم المحتومة كل مساء ويمضون الى بيوتهم . واستشرف رغدان بعد دقائق على مئات الصرائف الداخلة المغبرة الكالحة الملوزة . تنهض جميعاً بين مستنقعات بعوضية تأنف ان تلوغ بمائها الكلاب . هناك تنهض صريفة ابويه والى جوارها صريفة هنداسة الفتاة السمراء الفاتنة المرصودة لزواجه . كان فخوراً ببذله وحذائه ثائفاً لعرضهما على انظارها وابتسمت هي حال ان وقعت عينها على الشاب المتباهي الراقل ببذله ارباب القصور والكابس قدميه في الاحذية ، قال في حبور وهو يتأمل عنقها الموشوم وعينها الكحيلتين وحنكها المستدق .

- هنداسة انني سأكون الليلة رب القصر من غير منازع وشريك وسوف أنام فوق البرج واشرف عليكم جميعاً - ثم أشار بكامل ذراعه الى الجدار الحجري العظيم الذي يغلف القصر من جهته الخلفية . فابتسمت هنداسة بحياء وبانت اسنانها الصغيرة البيضاء فحجبته بكفها المنفرج الاصابع قالت متضحكة

- ونحن ايضاً سنرفع انظارنا ونراك

واذ ما جلس الى ابويه بعض الوقت ، اعلن في جد وثقة - سأ تزوج هنداسة حال ان تعود الاسرة من الاصطياف وقد وعدتني السيدة بمكافأة ان احسنت الحراسة وجنبت القصر غزوات اللصوص واعتزم اقامة مأدبة بالمناسبة استدعي إليها جوقة الطبالين والزمارين .

هز ابواه رأسيهما مؤيدين ما ذهب اليه ابنهما ، فرحين بيزته الجيدة القماش وحذائه الملمع اللذين يذكرانهما بالمعلمين والجبابة .

ومع الظلام الدامس انقلب الى القصر وهو يتلمس طريقه بين الحفر والاخاديد وبرك المياه ولا تكاد هنداسة تبرح خياله لحظة واحدة ، فقد فتنته ابلغ فتنة . قال لنفسه انها «ستستيقظ في ساعات الليل وتشخص بأبصارها الى برج القصر فألوح لها يدي وتلوح لي بيديها» كانت فكرة سخيفة من غير ريب ولكنها لا تخلو من دعاية ومسرة وان علاء نفسه كان يصطنع هذا الضرب من العبث مع بنات الجيران فيلوح لهن ويبعث بقبل طائرة ويقذفهن برسائل مدعوكه .

كان القصر مظلماً والمصاييح مطفأة خلا مصباح واحد امرت السيدة ان يتصووا في المجاز طول الليل ، استنار به رغدان في طريقه الى السطح فنزع ملابسه على عجل وطواها الى جواره واضطجع بملابسه الداخلية محاولاً ان يستجلب النوم الى عينيه الشاخصين نحو صريفة هنداسة ، غير انه لم ينم ، بل اشعل سيكارة وتلاها بأخرى ، وفي زعمه ان وهجها المتقد يسهل اكتشاف مكانه فوق السطح ، فكر رغدان انها قد تخرج في اية لحظة بعد تفرق شمل السمار والمجتمعين في المفاهي . كان السرور يغمر قلبه وحلم الشباب اليانع الوردي المبتسم يفيض في جوانحه . انه اللحظات من اثرياء الناس وسراتهم

يقيم في قصر كقصور السلاطين يستشرف من عليائه على اكواخ المعدمين الجياع ، فانتصب بقامة مشدودة متينة وراح يتفرس في باب صريفتها مسف النظر الى الاكوام المتداعية من الطين المتساقط

واقبل القطار فشق حجب الظلام كما يشقها البرق اللامع . بهدر هدير البحر ، قد انطلق من ساعته من محطة باب الشيخ سالكا سبيله المحتوم الى كركوك . يتقدمه ضوء باهر يعشي العين وتنساب من ورائه عربات الدرجة الاولى والثانية المريحتان الفخمتان . ان اسياده المصطافين يستقلونها في اسفارهم . طقطقت عجلاته هنيهة فوق اخشاب الجسر ومضى مضى السهم . ها ان هنداسة قد بانّت من فرجة صريفتها تحمل مشكاة تسترشد بها في الظلمة . ان شيئا مثل هذا قد رآه قبل اليوم . ثمة لوحة زيتية عالية الكلفة تضعها الاسرة في صدر الصالون ، تمثل صبية حسناء يبضاء البشرة صهاوية الشعر ملففة بجلباب النوم تطل من شرفة وفي يدها مصباح تهدي به الى حبيبها .

غمغم رغدان في لهفة - هنداسة ها انني اقف هنا - وراح يلوح لها في غير امبال ، واذا ما اطمأن الى انها رآته ، رفعت المشكاة بذراعها الصغيرة ولوحت بها ، مشبهة ملاحاً يرشد سفينة ضالة الى الميناء .

في الليالي المقمرة لا تعتمد حبيبته الى مشكاتها فيكون في ميسوره ان يتبين فستانها وقسمات وجهها كلما انسكب عليها الضوء الواهن المتعب من قمر اشهر الصيف الشفاف المنور .

بعض السرقات تقع في القصور المجاورة رغم حيلة الحراس وسهر الشرطة . يصطنع اللصوص شتى الاساليب لاقتحام الابواب المفغلة وخلع الشبايك من اطاراتها والتسلل من الاسوار والحدائق . كانوا يتخيرون ضحاياهم

في رابعة النهار ويسرقونهم في الليل . ان قصراً منيفاً كقصر السيد محمود الحافل بالنفائس والرياش يحرسه عاشق مخبول يتغازل من السطوح ليس ذلك بخاف على اولئك المتصدين المهرة .

مضى شهر وشهران ورغدان منشرح الصدر فرحاً بلعبة لم تخلق له . ومضت الايام العشر الاولى من ايلول وغدا موعد اوبة الاسرة وشيكا كان يعتزم الزواج من هنداسة حال ان تمنحه السيدة مكافأته ، فقد ابتاع سريراً من خشب الجوز انيقاً لامعاً ان يحوزه سواء من اهله وقومه وابتاع كذلك منضدة ذات جوارير مبنية بالزجاج تثير الاعجاب .

وكانت الليلة الاخيرة، ليلة مدلهمة ممعنة في الاظلام . ارتدت السماء جلابيب سوداء طمست معالم الدنيا كلها فلم يعد لعيني رغدان شيء يمكن ان تراه وتميزاه ، تمتع مع نفسه « ستطلع لي مع مشكاتها » كان الوقت مبكراً غير ان الشمس قد غربت منذ وقت طويل ، وكان القوم يسمرون عند فسحات صرائفهم وافواج الباعة يودعون عجلاتهم اليدوية ويمضون عبر السدة، يختلط مع صفوفهم الكسبة الحرفيون وعسدد من الجنود والشرطة . فحرب رغدان ان ينام على نسمات ليل ايلول العليلة ، وقد غفا وفي جفنيه احلام مائعة ، احلام المزمار والطفل ومأدبة العرس واطلاق التهاليل ودوى الرصاص وهنداسة الى جانبه . وفي هذه الغمرات الحاملة تناهى الى اذنيه صدى صرخة ، فتململ في مضجعه وزفر في تضايق فتنهاى بعدها الى اذنيه هرج واستغاثة فأفاق رغدان على مرأى لهيب مندلع من صريفة هنداسة نفسها . كانت المسكينة تحمل مشكاتها فعثرت بالوصيد فأندلق النفط على حصير الصريفة وتأججت النار . رفع رغدان جذعه في رعب فرأى نفراً من الناس بينهم ابوه وامه يحملون صفائح ملأى بالماء يسكبونها على اللهب العنيد المتراقص . كل هذا لن

يجدى نفعاً ، كان يعلم جميعهم ان شبت النار في مكان أكلته وأكلت جواره .
بقية من عقل دلت رعدان الى السلم بدل ان يلقي بنفسه من البرج الشاهق
الى عرض الطريق . هبط في سرعة جنونية صافقاً من ورائه الابواب في عنف
مهرولاً عبر الازقة . وقبل ان يصل ، كانت النار قد اشبعت جوعها ونهمها
بأشياء هنداسة واشيائه واحالت الصريفتين الى رماد داخن .

وفي القصر تسلل اللصوص الى اشياء السيدة ذاتها ونهبوها في اطمئنان ،
ومع الفجر عادت الاسرة من الاصطياف ، عادت مثلها في كل مرة بحقائب
ملأى بالشالات والاقمشة والمعاطف وبوجوه تطفح بالصحة والبشر . فعربت
السيدة واحتاجت حال ان بلغت بسرقة القصر ، غير انها لم تذرف دموعاً
واحدة ، وشهد افراد الاسرة جميعهم مخدومهم رعدان وهو يقاد مكبل
اليدين الى الموقف .

لقاء

معظم المعارك الطفيفة التي يضطر طارق الى خوض معمعانها تنشأ بسبب امه، فهو في الحق رقيق الحاشية ذكي العينين حاد المزاج لا يرتاح الى الالهانة ولا يتقبلها وله اسلوبه الطريف في الانتقام من اولئك الذين يتحدونه ويلمزون امه جهاراً .

كان قد بلغ الرابعة عشر من العمر، يكسب رزقه بخدمة هذا او ذاك من الناس بعد ان ترك المدرسة عقب ان لفظته امه وهربت مع عشيقها . وقد حدث هذا منذ اربع سنوات، اي بعد وفاة أبيه بنحو عشرة اشهر، وانه ليذكر امه امرأة مليحة القسماط طرية العود يغطي وجهها الابيض نمش ناعم متبرجة تبالغ في التزين تضع في اذنيها اقراطاً من ذهب .

اما المعارك الطفيفة التي كان مضطراً الى خوضها بين اونة واخرى فهي بسبب اصرار خصوصه على تذكيرة بامه السالكة سبيل الغواية . فقد قيل انها ضجرت عشيقها وبرمت بعشرته ولم تعد تحتمل خشونته وسطوه على ما تملك فهربت منه وغدت امرأة متحررة تحيا لنفسها من غير رقيب ولا حسيب . ولم تكن في ذهن طارق ايما فكرة عن حقيقة النسوة اللواتي يعملن عمل امه، فكل ما يفهمه، ان ثمة نساء يتهادين في الشوارع يلبسن فاخر الثياب ويضعن الكحل ويتزوقن بالذهب فيحوم حولهن الرجال ويكسبن اموالاً كثيرة .

كان مخدومه يدير حانوتاً للطعام في احد المعسكرات فينهمك طارق
سحابة النهار وطرفاً من الليل في تهيئة المحشيات والبطاطا المعجونة بالسمن
والبادنجان المقلي بالزيت، عاملاً في جهد بالغ تحت أمرة مخدومه وزوجته
العامدة لكل زينة والمسربة بالخرق الوسخة والمتمخطة باصابعها، ولم يكن كلاهما
يرى فيه غير ذراعين نشيطين يعملان في غير ما ملل، ولم يتردد اي منهما ان
يلمزه دون حياء كلما تواني ان يغسل صحناً او يحمل دلوا او يرفع الصحف
الريقة عن المقلاة، ويقترا عليه في الأجر ويشاكسائه علانية.

وذات يوم نفذ صبر طارق فوطد العزم ان ينتقم من مخدومه انتقاماً
يليق بكرشة السمين الحافل وعجيزته الناهضة، فتغفله من وراء ظهره ورفسه
ببوز حذائه العتيق اقصى ما يستطيع ان يرفس، فارتمى الى الامام منبطحاً على
الارض صامداً أنفه بقبضة الفأس المدببة جعلت الدم يسيل منه وتأذت اسنانه
وذقته، واذا ما هم طارق ان يطلق ساقيه للريح، لحقت به زوجة مخدومه شاهرة
حجارة من احجار القدر ثقيلة كبيرة قمينة بتفتيت رأس ثور، الا ان الحجارة
اصابت مصراع الباب دون ان تصيب طارق باذى، وفي المساء القى القبض على
طارق بمعونة مخدومه وزوجته اللذين ذكرا كل ما يلزم لارشاد البوليس الى
مكمنه فوضعت في يديه الاصفاد وسبق الى المركز مخفوراً برجلين مسلحين، فأدرك
طارق ان عهد المعارك الطفيفة قد انقضى وانه منذ اليوم صار يخوض معارك
حقيقية تستوجب استدعاء الشرطة ووضع الاصفاد باليدين.

كان المركز كبيراً حديث البناء ذا قاعة مبلطة بالكاشي تقوم على
جانبيها عدة غرف كبيرة غير مجللة بالستائر، قد اتخذت بالاضافة الى مركز
محلي مكتباً لرئيس الشرطة المسؤول عن النصف الثاني من أمن المدينة.
اقتاد الشرطيان طارق الى المفوض الخفر لتدوين اسمه وحرفته وعمره كما

هو جار في المراكز، يقتفي أثره مخدومه وزوجته اللذان بالغاً بشكل ظاهر في الشكوى ماحداً بالمفوض ان يسدد لطمتين تأديبيتين الى وجهه، ثم اقتيد الى الموقف، إلا انه دهش دهشة بالغة فيما هو يتخذ سبيله الى غرفة التوقيف فقد تناهى الى سمعه وشوشة نسائية كالتي يسمعها الناس في الحمامات العامة، كانت تنبعث من غرفة تقابل المفوض، واذ ما تلفت طارق نحو مصدر الصوت لقي حشداً من النساء مضطربات الشعر قد تشبشن بحديد النوافذ وليس في معيتهن ايما رجل. كن حاسرات الرؤوس مصبغات الوجه على محياهن سيما الفظاظ والعهر.

اقتيد طارق الى الموقف حيث يقع في ادنى الحديقة، وهو عبارة عن مسقف مستطيل ذي نافذة مقضبة واحدة وباب مشبك كبير. وكان ثمة صبيين مجلبين في مثل عمره يدخان السكاثر ويرسلان سباباً متلاحقاً لكل من يخطر على بالهما، وكان الى ذلك رجل آخر، وسخ ملتجئ عليه سيما العته، قد تزمّل بقاء سميك يشده الى وسطه حزام من الجلد ذو ابريزمين نحاسيين كأحزمة الجزارين. ان ذلك القباء فيما يبدو هو الشيء الوحيد الذي يرتديه الرجل. استشعر طارق أشد الضيق من مزاملة هذا الرهط المريب الباعث على القرف، فساوره جزع بالغ من ان يتألبوا عليه وينوشوه بأذى. كان طارق قد رأى الى شاكلة هؤلاء الموقوفين يذرعون الازقة ويتربصون في العتمة ويقامرون بالورق والترد ويستحمون في امسية الصيف القاتظة على شاطئ النهر.

سرعان ما لمس هؤلاء نفوره منهم فبادلوه بنفور مثله، غير انهم حملوه مكرهاً على ان يرد على أسألتهم: عن هويته وعن سبب توقيفه واذ ما أشبعوا فضولهم من حكايته التي بدت في اعينهم لعبة طفلية سخيفة لا يثير في نفوسهم اي قدر من

التشويق ، دنا نحوه الرجل الملتحي داساً قبضتيه في بعض جيوه هازاً رأسه في تباه وغرور متشدقاً بنيرة مخنخنة فيما احاط به الصبيان من جانبيه هازئين ساخرين .

- ان امك لم ترضعك كفاية من الحليب كي تخرجك رجلاً كاملاً ... اذن كيف يصح لك ان ترفس الناس في افقيتهم وتلوذ بالفرار ثم يقبض عليك في بيتك كما يقبض على الدجاجة الحمقاء في قعر التنور وتساق الى المركز فيصلح لك المأمور بعض اسنانك العوجاء بلكمتين كاتنا لاثقتين بيوزك المدبب ، اما نحن أيها الشقي الجبان فقد اتينا الى هذا المكان من تلقاء انفسنا بغير اصفاد ولا اهانة ولا اصلاح اسنان عوجاء ، انما تقدير وتحيات عند الباب ... وانا في الحقيقة في الفندق العام التي تدبره الحكومة الموقرة وتشرف عليه لراحة ابنائها الابطال اللذين يشكون من قرصات الجوع وقلة الراحة ... وهكذا تستطيع ان تنام ايها القنفذ الصغير ولا تثير لغطاً ولا ثرثرة ولا تلجأنا الى رؤية وجهك مرة اخرى .

وجيء بالعشاء فكان كباباً مفلفلاً مع رغيف واحد من الخبز وكمية من الكرفس فاصاب كل حصته وتناولها بنهم ظاهر وتلمظ بصوت مسموع بينما أنتحى طارق في الزاوية مستديراً بظهره نحو الباب وراح يقضم عشاءه في صمت ومسكنة .

كان الثلاثة على علم اكيد بوجود النساء في الموقف الآخر ، وهن رهط من البغايا بالغات الدرك الادنى في سلم الحرفة التقطهن الشرطة من الارصفة المعتمة ، فيما كن يترصدن الرجال ويطارحنون الحديث ويثرن الشبهات . كان لغطاً خفيضاً يدور على السنة الموقوفين وقد بدوا جميعاً مترقبين لأمر ماقد يقع وقد لا يقع ، ولكن المسألة كلها تتوقف على نشوب حريق او وقوع جريمة

مروعة او سطو عصابة من اللصوص على البيوت الآمنة . ان احداثاً من هذا
 الضرب كفيلة باحضار الرئيس من بيته فيلازم مكتبه المجاور لغرفة توقيف
 النساء وانه عندئذ سيضجر من لغوهم وثرثرتهن فيامر بنقلهن الى موقف
 الرجال . كان الفرخ يطغي على نفوسهم طغيان ضربات الطبول على حشد من
 الزنوج . اما طارق فقد خلف جانباً من غير مشاركة ولا الفة ، منسيا تمام
 النسيان دافئاً رأسه بين ركبتيه مستسلماً لاغفائه هادئة ، واذ ما الح عليه سلطان
 الكرى تراخت ذراعاه واغتمضت عيناه وراح يحلم في حياته الماضية كلها
 منذ ايام والده ، حيث كان يضعه في حضنه عندما يتناول طعامه ويلبسه بدلة
 عسكرية كبدة الضباط مزينة بالازرار النحاسية وكوكبة فوق كل كتف ،
 وذات يوم لازم الفراش ولم يخرج الى عمله عدة اسابيع فكان يعود به بعض
 اصدقائه ويجلسون الى جواره ويتناولون واياه حديثاً صغيراً متقطعاً حتى رأى
 الى أمه ذات مرة وهي تتلفع بعبائتها وتخرج الى الطريق ، ثم عادت بعد
 نصف ساعة مع رجل مهندهم انيق البزة يضع عوينات ويحمل حقيبة صغيرة
 فقيل له انه الدكتور جاء ليشفي اباك من مرضه ، ففحص اياه وهو مستقل
 عارياً فوق الفراش ، وبدأ لطارق اشبه بعظام مخيطة الى بعضها من فرط
 هزاله وضعفه ، فاخذته الأسف والاسى على ابيه . وجاءت والدته بالدواء فصار
 يشربه بامتعاض وعبوس ، وحينما اعولت في احد الأمسيات علم ان اياه قد
 مات . يذكر النعش والتابوت والمشييعين القلائل ، ثم صارت اثاث البيت
 تختفي قطعة اثر قطعة ولم تعد لهم حاجة حتى بالبيت نفسه فانتقلوا الى غرفة
 في مكان ما ، ولم يدر طارق علام صارت امه تضجر منه وتريد ان تبعده عنها ،
 لعله أخذ يتسائل عن سبب وجود رجل غريب معها ، فدفعته الى مدرسة داخلية
 ونست ان تدفع عنه اجرة الايواء والدراسة فاخرج من المدرسة وضاع في

زحمة الناس لا يدري لاهم مكاناً ولا شأناً ،

هوم الموقوفون الثلاثة في ضجر ونفاذ صبر متطلعين تطلعاً موصولاً
عبر النافذة كمن ينتظر معجزة ، وقد وقعت المعجزة فعلاً اذ اقبل رئيس
الشرطة على عجل فأشاع الرهبة والخوف في كل نفس حية ، فاتجه نحو مكتبه
وما كاد يبلغه حتى امر بنقل النساء الى موقف الرجال ليخلو له سبيل العمل
والتفكير . فقد قيل ان رجلاً ما قد قتل ، وفر الجناة بسيارة

اقلت اربع نساء عبر الحديقة ضاجات بالشكوى والتذمر من سوء
معاملتهن وعدم السماح لهن باطلاق سراحهن . كان يقودهن شرطي واحد
مسلح وما كاد يفتح لهن الباب حتى هدر في وجوههن متوعداً .

- كل يلزم مكانه كما يلزم المسمار مكانه في الحائط . من يثر منكم
جميعاً أي شغب أو منازعة سحقت له عظامه ، وقد يظن احدكم انها فرصة
للعبث او خروج لصيد ابن آوى فيلهو كما يحلو له ، انها ستكون عليه
وبالأسود .

تظاهر جميعهم بالطاعة والامثال حتى المعتوه الملتحي انتحي جانباً
وراج يرنو بلا مبالاة تامسة وكأن الامر كله لا يعني شيئاً بالنسبة اليه ، ثم
اردف الشرطي .

- النساء الى اليمين والرجال الى اليسار... وهكذا حتى تطلع
عليكم شمس الغد

ثم ابتعد بعد لحظات وسمع بجلاء صرير حذائه الثقيل وهو يتلاشى .
هتف المعتوه في انشراح « انه قسد ذهب فليختار كل منكم صاحبه
ويكون الى جانبها ولكن من غير ان يمسيها وإلا كانت فضيحة »

زحف المعتوه بتؤدة واحتراس نحو امرأة بدينة كثة الشعر حولاء في

عينها الواحدة فرمقته هذه بنظرة مستقرئة ، مأخوذة برثائه قبائه الوسخ
ووجهه الملتحي البائس فابتسم لها وارتاحت له .

أما الصبيان فتخير كل منهما صاحبه ولازمها ، وهما امرأتان هزيلتان
ممسوحتا الصدر . وتخلفت الرابعة في زاويتها غير مبالية ادنى مبالاة بالوضع الذي
انتهى اليه التوزيع ، بل اخرجت سيكارة وشرعت تدخن . كانت في نحو
الاربعين من العمر تبدو مخمورة بكمية صغيرة من العرق أوقع في رأسها
الدوار ، اوما اليها المعتوه .

- هناك اذهبي اليه

فهزت رأسها رافعة سيكارتها المتشعبة بأطراف اناملها ، ففهم المعتوه
انها ستفعل ذلك بعد الانتهاء من التدخين . اما حادثة القتل التي خدمتهم
وسهلت لهم هذا اللقاء ، فقد وردت الانباء عن طريق العبارات المستعجلة التي
يتفوه بها الشرطة الداهبون ألا ييئون في الممرات . ان سيارة اسعاف قد
استدعيت وفتشت جيوب القليل للعثور على أوراق تثبت شخصيته وان جثته
قد نقلت الى المستشفى ، احس طارق ان ثمة يدأ تمس كتفه وتهزه برفق
وسمع صوتاً ناعماً يهمس في اذنه .

- هيا اقعد كفاك نوماً

استدار طارق متطلعاً الى وجه المرأة ، ثم ما لبث ان اخذه الدهش
وعراه الارتجاف . كانت امرأة مليحة القسمات يابسة العود يغطي وجهها
الايض نمش ناعم وفي اذنيها اقراط من البرونز . كانت امه هو .

حامى الاسياد

كنت في وقت ما موظفاً في احدى المصالح، وكان الطريق الذي يوصل بين بيتي وتلك المصلحة يستغرق نحو نصف ساعة اعتدت ان اقطعها مشياً على الاقدام . وقد حدث لي كما يمكن ان يحدث لكل انسان يترك منزله كل صباح في ساعة معينة ان يلتقي بلا انقطاع بوجوه معينة يصادفها على الطريق . واستطيع ان اذكر هنا خمسة او ستة وجوه انطبع في ذاكرتي انطباع النقش على حجر صلد .

ثمة فتاة في نحو الخامسة عشرة من عمرها تميل الى القصر باسمه الوجه ضاحكة العينين يبدو عليها حياء مفرط ، في يدها حزمة صغيرة من الكتب والدفاتر وعلبة من الالمنيوم تحشو فيها اقلامها ومبراتها ، وفي موضع آخر ألتقي بأحد اصدقائي القدماء فتبادل التحية في حرارة وابتهام ثم اصادف قرب الكنيسة موظفاً اشيب بادى الاغياء يزحف نحو دائرته ومن جانب فرعي من الشارع يطالعني وجه سيدة محشمة مصبوغة الوجه تتجه نحو مخزن اوروزدي بالك .

والوجه المثير الذي لفت نظري كثيراً وجعلني احوطه بعيني احاطة دقيقة ، هو شرطي بسيط بلا رتبة كان يقف على رصيف الشارع العام وقفة صارمة فخوراً كأحد الجنرالات الالمان يستعرض كتابه من الباصات والسيارات وجموع السابلة . يتدلى من خاصرته اليسرى مسدسه الاسود الكبير محفوظاً

في علة جلدية لامعة . وهو الى جانب نظره وتعاليه ، فارع العود الى درجة ملحوظة متين البناء عريض الصدر ضاري النظرات كنموذج ممتاز لرجل الامن الذي كانت تستخدمه السلطات البائدة في قهر الشعب .

كنت انظر اليه واتمثل قامته المشدودة ويديه الضخمتين الحجريتين فيخيل لي انه على أتم استعداد للفتك بأي انسان تسول له نفسه افساد هذا النظام (البديع) الذي يسود الشارع في الصباح .

تمر به السيارات الفارحة ذوات الرقم الصغير ببطء وتناقل على شكل سلسلة لاينقطع لها معين ، وكان ذلك الشرطي في اتم وعيه لازجاء التحيات لائك المنعمين ، فكلما ارتفعت ذراعه الى صدغه ودق الارض بكعب حذائه ، كانت هناك سيارة فخمة لامعة يستقلها رجل حسن البزة لامع الوجه تبدو عليه مظاهر الطغيان والتسلط . ولم اكن ادري هل ان هذا الشرطي يعرف رجاله معرفة يقينية ام انه يأخذ بالمظاهر البراقة فيؤدي تحياته على هذا الاعتبار . تولدت في نفسي رغبة لاتقهر في تقصي حركات هذا الشرطي وسكناته ، حتى انني سمعت صوته ذات يوم . كان قد اقترب من شرطي آخر قصير بدين على ذراعه خيطان ، سأل « أتدري لمن السيارة التي تحمل رقم ... » كان صوته اجش مفعماً بالرجولة ، فأجابه الشرطي الاخر « انها سيارة معالي الوزير فحذار يا علوان من اداء التحية انه لا يريد ابدآ . »

وقد عجبت ان اجد ذلك الشرطي الشامخ يتغضن جبينه ويغفر فاه ندماً على هفوته التافهة ، فقد كان يؤدي التحية لصاحب المعالي ذاك وهو لا يدري اية مخالفات يجترح .

وجاء زمن قامت فيه المظاهرات وماج الشارع بالهاتفين الغاضبين وتصاعدت من حناجرهم القوة الصرخات المدوية المجلجلة ، فاسقطوا من

اسقطوا واعاشوا من اعاشوا ، فاستخدم ذلك الشرطي لتشتيت المتظاهرين .
وقمعهم ، فلقبته ذات مرة في حومة المعركة معتمراً خسوفة فولاذية ومتسلحاً
ببراوة ثقيلة من خشب التوت قمينة بتفتيت رأس ثور ، وراح يبطش بها
بضراوة وهستيريا ، فصمد له المتظاهرون وشقوا طريقهم في عزم واصرار
تتأرجح فوق رؤوسهم شعاراتهم الخبيبة وقد كتبت على عجل « الا ليسقط الخائن
- الموت للاستعمار والمجوعي الشعب » كلمات مطبوعة على السنة الاحرار في
كل مكان ، ولكنها في معسكر الاسياد اولئك الماسكين بالسوط والجالسين على
كراسي الحكم المبطنة بالمخمل تجعلهم يفقدون أعصابهم ، كما فقدوا من قبل
نظائر لهم واشباه .

واخيراً قهر المتظاهرون . قهرهم النار والحديد ، وقهرهم كذلك ذلك الشرطي
الشامخ ، واعلنت في المساء الاحكام العرفية وتشكيل محاكم التفتيش وسيق
الاحرار من منازلهم الى السجون وانهاالت عليهم اثم باطلة مضحكة ، ونصبت على
اثرها المشانق ، وعاد ذلك الشرطي من جديد يحتل الشارع بنظراته وتباهيه
وقد وضع على ذراعه شارة الرتبة التي منح اياها .

كنت أتأمل في الصباح مزهوا متباهياً يوالي تحياته الحارة بهمة منقطعة
النظير حادجاً المارين بغير اكتراث . في ايام الشتاء المكفهرة وبرودة الصباح
قد عصفت بالوجود والابدان ، يقف في جلد وصلابة يحيي الرجال المترهلين
السعداء الناهبين خبز الجياع وارضيتهم وكرامتهم ، وفي حر الصيف اللافح
يقف في مكانه أيضاً متحملاً القيظ المهلك كحمامة الخطاب ، فاقول في
دخيلة نفسي : ترى الا يشعر هذا العملاق انه حارس لكل هؤلاء ، هم في
دواوينهم ومزارعهم ومآدبهم ووطنياتهم متراخون على الارائك ومنغمسون في

الملذات وهو ها هنا في عرض الشارع يحميهم ويذود عنهم الاذى ويواجه تيار الهاتفين الغاضبين بهراوته العتيدة شاجاً الرؤوس ومحطماً الاذرع .

صرت بمرور الايام احسب ان هذا الشرطي جدار فولاذي يقف مانعاً في سبيل تحرير شعب بأكمله ونوال حقوقه ويقف مانعاً أيضاً في سبيل تحقيق اية عدالة ممكنة ، فأتساءل: الا يشعر بما يصنع ، الا يدرك الموضع الذي وضعه فيه الاسياد ، بل الا يفهم انه مسخر لضرب وقتل اناس ليس في الدنيا من هم اقرب اليه صلة وادنى رحماً .

دارت الايام دورة كبيرة ، فتحولت من عمل الى عمل وتغيرت ظروفه وانقطعت عن المرور في ذلك الشارع ولم اعُد ارى ذلك الشرطي مطلقاً وكدت انساه وانسى كل الذي فكرت فيه في ذلك الحين ، وبعد مرور اربع سنوات كنت ازور صديقاً في السجن . كان ضحى يوم حار قانظ وباحة السجن مكتظة بالرجال والنساء والاطفال مع باعة اللبن والمرطبات الرخيصة الوسخة وقد جلس الزائرون على الارض مع أقربائهم وأصدقائهم المساجين على شكل حلقات متراصة في ظل شجرة كاليبتوس فارعة ضخمة ، وكثير منهم جلسوا تحت وقدة الشمس المحرقة . فلمحت فيمن لمحت في تلك الساعة صاحبي الشرطي . كانت عليه بذلة السجن الخشنة ، قد جلس الى امرأة اعراية بائسة وحولها ثلاثة اطفال بجلايب فقط وامام الجميع سلة فيها - ركية - واحدة وعنب وصمون وتمر وقدر صغير فيه طعام بارد . فاخذتني الدهشة لحاله ولحال العائلة كلها ، فنازعني نفسي ان اسأله عن سبب عن دخوله السجن ، تطلعت الى وجهه ملياً فلم اعثر على اثر لتلك العنجهية المقيتة وذلك الاعتداد الفارغ ، انما هو الساعة الانسان الحقيقي المعدم البائس المتجرع الأم طبقته وثقلها الباهظ ، قد ارتد الى مكانه الصحيح كما يرتد المطاط المشدود والمتوتر .

اقتربت نحوه والقيت عليه السلام فهش في وجهي، قلت له بلهجة رقيقة
- انا اعرفك ، كنت شرطياً تقف في الشارع العام امام الجسر ماذا فعلت ؟
اجاب مستغرباً - حقاً كيف هذا ، انني لم ارك ؟
قلت - انك لم ترني ولكنني كنت ارقبك باهتمام . كنت شرطياً بلا
رتبة فاشتركت في قمع المظاهرات فابلت أشد البلاء وانعم عليك بخيط .
هتف بأسى - آه يا عزيزي المظاهرات ، انها حطمتني ودفعت بي
الى السجن .

فسألته مدهوشاً - كيف يمكن ان تحطملك المظاهرات وطالما
حطمتها بهراوتك المفزعة .
وظفق يروي حكايته . قال :

كنت أقوم بعمل المناوبة في الشارع وكانت أياماً حالكة سوداً
ما نكاد نفرغ من تفريق مظاهرة حتى تنفجر أخرى والدنيا في هرج ومرج
والشرطة في كر وفر كأنما نحن في معركة حقيقية لا ريب فيها ، فاعتمرت خوذتي
وتسلحت بهراوتي .

فصحت في سرور ومداعبة - وبالله من هراوة .

فعقب في أسى - نعم ضربة واحدة تجهز على الخصم .
واسترسل يقول - خرجت الى الشارع فتلقيت الاحجار تنهال فوق
رأسي والهتافات تصم الاذان ، فجاءت مفزعة من الشرطة مدججة بالبنادق
فاطلقت عياراتها في الفضاء مهددة فلم يجد ذلك نفعاً ، فاصابني حجارة كبيرة
في كتفي فتاوهت بالم واستدرت نحو المتظاهرين وقد فقدت اعصابي وغدوت
وحشاً ضارياً ، فرفعت الهراوة وانزلتها باول رأس لقيته امامي . لم اتبين شكله
ومعارف وجهه ، انما اذكر انه كان قد دس ذراعه في جيب بنطلونه وابتسم

لي في هزوء ، وسخرية اتدري من كان ؟ كان ابن ذوات

قلت - يعنى ابن اولئك الذين كنت تحييم في الصباح .

- اجل انه ابن احدهم ، وقد انتهت المظاهرات وانعم على بخيطة

اخر غير انني فوجئت ذات يوم بتوجيه تهمة لي ، هي تهمة الاعتداء على حياة
ابن الذوات المزعوم .

فأحتجزت في الموقف وابتدأت محاكمتي .

سألته في دهشة - ولكن ايها العزيز تحياتك واستعداداتك الصباحية

وهراوتك العتيدة التي ابلت فيها شر البلاء ، الم يبادر شيء من هذا لنجدتك .

اجاب في قنوط - لاشيء بادر الى نجدتي .

سألته - ماذا كنت ترجو ايام تبخترك في الشارع وشج رؤوس

المتظاهرين بالهراوة ؟

أجاب في أسف - كنت ارجو الترقية ، منحوني خيطاً وطمعت بخيط

آخر ، وليكنهم ادخلوني السجن بدل ذلك .

سألته أخيراً - من كان على حق ، المتظاهرون ام اسياذك الخونة .

اجاب في ندم - كنت مغفلاً كبيراً بل اعمى ، لا افهم حتى مشاعر

الناس الذين يتظاهرون من اجل سمعادي .

وتركته منصرفاً الى صديقي السجن .

خاسرة

كانت الشمس ترسل شواظها اللاهب من نقطة سمت الرأس ، انها شمس تموز التي لا ترحم قد اسخنت الملايين من ذرات الغبار وجعلتها متأهبة في اية لحظة للانطلاق في الفضاء في عجاجة رمادية محرقة تهيج خياشم الناس وتوسخ ارديتهم ، وما اكثر ما كان يحلو لسائقي السيارات ان يكبسوا وقودها ليثيروا من ورائهم سحائب الغبار ، تتلقفه الريح في نهم وتذروه في كل ناحية واتجاه . الغبار والشمس والرياح ونهار تموز لم تمنع جميعها افواجا من الرواد عقدوا العزم على القيام بزورة نهائية . لذلك المكان العجيب الموبوء . تكردح على الطريق زرافات الرجال محمرة الاعين قرمزية الوجوه منقوشة الشعر تجر اقدامها في كسل ووهن ، تشرأب باعناقها الى مداخل البيوت . رغم ان جميعهم على يقين ان عدد البغايا لم يزد واحدة عن ليلة امس وليس بينهم اي وجه جديد . وتكردح كذلك ثلاثة من لاعبي القمار . كان يتقدمهم رئيسهم وهو يجردور بشع قد اطفأ الجدرى احدى عينيه وطمسها في حفرة عميقة بينما سلمت اخرى نافرة في محجرها لتتظر الى العالم في ضراوة بالغة متوعدة ، قد اقتفى اثره على مبعدة اثنان من اعوانه ، احدهما سمين قصير مكور البطن من طيور السجن المعروفين والاخر يضع حول منكبيه الاعرجين قباء من اقبية الاعراب ويعتمر كوفية بيضاء كرامة الجمال . تقدم الرئيس الذي يحكم وضع خطواته على الارض كرجل واثق من سلامة حرفته واقتعد حجارة تجاه احد البيوت

الحاظية باهتمام كبير من الرجال، حيث كانت البغايا يضطربن عند المجار. كان الحر قد أودى بمزاجهن، فنزعن لبوسهن الثقيل واكتفين بغلائل سود مخزومة ومسدولة من اكتافهن الى الارض في غير ما تائق ولا تجمل.

كانت اجسادهن منهوكة متعبة وجلودهن مخضرة معصورة رخوة تغلف لحمهن المهزول، وقد فضح حر النهار وسطوع شمسهِ الباهرة للمعان قبح وجوههن اليابسة المتخشبة الحافلة بالعضون والندوب.

قرفص ذو الوجه المجذور تحت ظل خفيف مرتعش تمده به شجرة كالبتوس وارقة. قد مالت باعصائها الى الطريق، وراح يرنو باشتهاء وتمتع بعينه الواحدة الى نزيلات البيت المقابل فيما هو يسط منديله المطوي على التراب ويخرج من موضع من ثيابه ورقات ثلاث، احداهما دينارية حمراء واثنيتين سوداوين، وشرع يناقل بينها بخفة ويرسل صغيراً خافئاً من بين شفتيه نصف المطبقين ما لبث ان أنقطع حال ان تقدم اليه زميله في مشية مترنحة لامبالية كمستطرقين لا يعنيهما الامر كله ووفقاً تجاهه في سيما من الفضول والاستطلاع. صار المجذور يعمل الان في جد وغدت ذراعه اشبه باله تخبط أشياء ما على الارض متمتما في صوت خافت ولكنه واضح اتم الوضوح: اسود الى احمر الك - ويعمد في بعض الاحيان الى كشف اوراقه الثلاث فستبين الحمراء الغالبة باسرع مما يفتح المرء عينيه ويغمضهما، ثم تنزلق من بين يديه مققودة الاثر. تقدم زميله السمين وانحنى نحوه باهتمام مصطنع يرقب تنقلات الورقة الحمراء، فمد يديه في بعض جيوبه متلفتاً ذات اليمين وذات الشمال باحثاً عن نظارة يشهدون النصف الدينار الذي اضجعه على احدى الورقات وشرع البدوي الهزيل يهمهم في ضجر تائقاً الى اصطياد شخص ما واسدال الستار عن الفصل الاول الشميلي والبدء باللعب الحقيقي المربح، هاتفاً بين

حين وأخر منها السمين الى مكان الورقة الحمراء - اتبه انها في الوسط -
انها في اليمين - انها في اليسار -

انقضت نحو عشر دقائق دون ان يصطادوا احداً ، وقبل ان يطول
انتظارهم الى ربع الساعة، تقدم اثنان ، احدهما يبدو موظفاً ذا مظهر محترم
يضع عوينات خضراء ويعتمر قبعة من القش متأبطاً ملفاً كبيرة اشبه بمحصولي
الضرائب او اجرائي في المحاكم ، واندفعت الى الطريق احدي بغايا البيت
المقابل . . كانت شابة مليحة في نحو العشرين متوسعة العينين في جراءة ينهض
على جانبي صدرها المتعظم ثديان مخسوفان صغيران مختفيان في طيات غلالة
خضراء شفافة وفي قدميها المخضب كعبيهما بالحناء ، نعلان من جلد السختيان
الاسود ، سارت بسرعة رافعة ذراعيها وكأنها تهم ان تطير ، فاصطفت الى جانب
الموظف تدرس اللعبة باهتمام محاولة ان تحزر اين تكون الورقة الحمراء ،
وقد أتت من الحركات الخرقاء والثثرة والايماءات ما جعل وجودها بغيضاً
الى اللاعبين ، غير انهم سمحوا لها بالوقوف والتفرج في سبيل تضخيم العدد
المتجمع وجذب لاعبين حقيقيين . زعقت البغي في حق حال ان خسر الموظف
ديناره الثالث .

- الحمراء هنا على اليمين ، اين عينك .

فاتهرها ذو الوجه المجدور في زجاجة صماء مغضبة وهم ان يطردها
ولكنه ما عثم ان سكت قاذفاً في وجهها نظرة متوحشة ضارية فتابت اسفة -
«اواه اني مفلسة فلو كنت املك نصف دينار لسلبت كل ما معكم» فلم يلتفت
نحوها احد ، فراحت تهز رأسها في تفجع وندم وتضرب باطن كفها في ظاهر
الكف الآخر كما يفعل النادبات في مجالس العزاء .

كانت تود لو تملك نصف دينار ، ولكن لم يقدر لها في ذلك اليوم ان

تملكه لانها لم ترق في عيني احد من الرجال ليستمتع بها ويدفع اجرها .
تقدم ثان وثالث ورابع وخامس حتى شكل مجموعهم قوساً كبيراً يتربع
المجدور في وسطه كنجمة تتوسط الهلال ، بينما اتخذ زميلاه واجبهما الرئيسي
وهو مراقبة الطريق من مداهمة الشرطة وطرده العناصر غير الراغبة في اللعب
وخوض المعارك مع الخاسرين الاقوياء الاجساد الطامعين في استرداد
خسارتهم . كانت يدا المجدور تعملان بذراعين مرتعشين دون ان تختلج في
وجهه جارحة تنبيء عن حزن او سرور ، والموظف ما يزال هو المقامر الاول
الموثر باعباء الخسارة ، فاغلب الظن انه يقامر براتبه او بمبلغ اودع لديه كأمانة
وما عثم يلاحق الورقة الحمراء كما يلاحق الصياد غزالاً نافراً حتى اشرف
على الخواء ، وحياناً يشق البدوي قوس اللاعبين ويلقي نظرة مستطيلة على
المجدور ليطمأن على سلامة اللعب او يرشد خاسراً الى مكان الحمراء كي
يدعه يكسب لتقوية معنويات اللاعبين ، ويأتي ذلك بمهارة مذهلة لاتدع احداً
يفطن الى حقيقة المناورة .

من اقصى البيت انطلق نداء ثاقب - مديحة مديحة - فاستدارت البغي
مدركة لاي شيء يستدعونها فمضت بسرعة وهي تتوعد - الان ساعليكم
جميعاً ، سيكون معي نصف دينار - فاه البدوي بكلمة بذينة لاقت استحساناً
لدى الخاسرين .

مضت عشرون دقيقة حتى عادت البغي مرة اخرى الى الطريق ، وكان
المتطلع من فرجة الباب يلمح في غمرة تسرعها ساقها قبل ان ينسدل فستانها
الى الارض . اقبلت مثل العاصفة ضاحكة صاحبة كأنها تخشى ان يفوتها مكسب
كبير ، فدفعت اللاعبين بكتفيها وصاحت في اعتزاز - ها قد جئكم ، ان معي نصف
دينار - ولوحت به فوق رؤوس الرجال ، فرمقها المجدور ذو العين الواحدة

بنظرة شذراء منكورة ونخر في خبث وراحت يدها تعملان ولسانه يختشعش
- احمر الك اسود الى حظك نصيبك يا نصيب .. كان قد وطن العزم على ان
يسلب من البغي نصف الدينار في اول جولة ، فيخرس لسانها الذي ثرثر نحو
ساعة من الزمن .

كانت عيناها تدوران مع الاوراق، ورأسها يتذبذب فيتذبذب معه
شعرها الجعد الداكن الشبيه يشعر الماعز، وتمهل اللاعبون وفي نفوسهم جميعاً
حق ملحوظ وموجدة متأججة نحو البغي الثائرة المهذرة، تائقين الى خسارتها
أشد التوق لادخال المسرة الى نفوسهم، واذا ما وضعت نصف دينارها التمتع
عين المجدور في خبث وارسل البدوي ضحكة قصيرة شامتة ونفخ السمين في
الفضاء نفخة رنانة كلها استهزاء ونكاية. كانت ورقة سوداء خاسرة ، فجمدت
البغي استحياء وخجلاً، عبت وقطبت حاجبيها وهمت ان تزجر بشيء ما، الا
انهم احسنوا اسكانها بنظرات كالحة مهددة ، فاذعنت في استسلام واخذت الى
السكينة مركزة اهتمامها بالموظف ، لكأنما قد اخذتها الشفقة على حاله ولا تني
تتحسر وتتأوه على النصف الدينار الذي انالها اياه رجل مثل هؤلاء الرجال
المقامرين فخرته في غمضة عين ولم يتعب المجدور ولم يشق قدر ماتعت
وشقت واهدرت من كرامة .

اخذ الظل يتقلص ساحباً فراشه الرمادي المستطيل من عرض الطريق
منهزماً امام سهام الشمس المحمية المحرقة ، وغدا ظل المجدور ينصب كله فوق
الورق وقد تصيب العرق من جبينه وانحدر على خديه في خطين منكسرين .
واذا ما هم الموظف ان يضع نصف ديناره الاخير امسكت البغي بذراعه
وسالته في توسل .

- لانعال معي ، ليكن نصف دينار من نصيبي .

فجذب الموظف ذراعه بقوة وكأنها هي تدنسه بقبضتها، فرفع اليها
المجدور عينه الواحدة متوسعة محمرة ملتزمة البؤبؤ بحقد شرس وصب عليها
محيطاً من كلماته الجارحة المخزية جعلها تستدير مخذولة وتشخص الى يبتها، واذا
ماخسر الموظف كل ما يملك خرجت له معاتبة .

- اكان حرام لو اعطيته لي .

فصعد فيها الموظف نظرة حزينة نادمة دون ان يجد كلمة مناسبة يطيب
بها خاطرها، وسرعان ما دلف الى المنعطف وغاب عن الانتظار .
تفرق المقامرون واللاعبون ، يغمرهم العرق ويجلل هاماتهم الغبار
واتخذ كل سبيله من أجل مغامرة جديدة .

عقيلة الامس

كانت الضوضاء تنبعث من صحن البيت وتبلغ اذني هناء في الطابق الثاني، حيث كانت قد آوت الى الفراش مع ولديها عندما بلغت الساعة التاسعة بعد ان انجزت كل ما يمكن انجازه من مهام البيت الكثيرة، وفوق ذلك فقد تباطأت اكثر من المعتاد امله ان ينصرف هؤلاء المحدثون لهذه الضوضاء كلها ولكنهم لم ينصرفوا، انما غطسوا عميقاً في ارائكهم وراحوا رؤوسهم بالمتاكي، وكأنهم يتوقون الى وجبة عشاء دسمة تعقبها وجبة جديدة من القهوة والشاي.

كانت الضوضاء محتملة بعض الشيء ومؤنة لا سيما النحيب المصطنع الذي تطلقه امرأة عجوز عندما تداهم الشرطة بيتها وتختطف ابنها الوحيد بحجة انتمائه الى جمعية سرية ارهايية، اما بقية الممثلين فكانوا يتناقرون بديالوجاتهم كالديكة المجتمعة حول مزبلة صغيرة، لا يكاد احدهم يشكو الظلم وتعسف السلطات حتى ينبري الاخر يندد بالسجون والزنايات ويقترح الثالث بضرورة القيام بمظاهرة ضخمة تزلزل الحاكمين وتضطرهم الى الانحناء نحو مطالب الشعب. اما الصوت الحاد القارص الذي اقلقها واثار وساوسها فكان صوت الممثلة المجهولة التي اضطلعت بدور الارملة التي فقدت زوجها في مجزرة السجن الشهيرة، وتعاون مع فائق زوج هناء في ادارة مطبعة سرية تطبع نشرات صغيرة يتناولها بعض الثائرين ويلصقونها على الجدران او يلقون بها في افنية

البيوت ومجازاتها، ولاجل ان يمحو زوجها الفتور الذي قد يستبد بالمشاهدين من جراء عنف مسرحيته وخلوها من العواطف، فقد اصطنع مشهداً صغيراً لتمثيل دور الحب بينه وبين الارملة .

كانت تردد دياالوجها - لسوف تشرق شمس جديدة على هذه الارض المثقلة بالاحزان ولسوف نغدو سعداء - ويجيئها فائق بدياالوج حامل وهو في حيرة من امره - ونحن الاثنين ما الذي سنفعله ، اني اريد السعادة للشعب كله كما اريدك ان تكوني الى جانبي . فقد احببتك يا عزيزتي لانك خدمت قضيتنا الكبرى وعملت الكثير من اجل الشعب المستعبد الرازح بالالام .

غمغمت هناء هازئة - شمس جديدة ، كأن الشمس جورب يعتق ويتجدد .

تملمت في سريرها وانصت الى الساعة التي اعلنت التاسعة ، وبعدها نهض اثنان او ثلاثة من الممثلين وانصرفوا في ضجة بعد ان جرى همس خافت مع زوجها عند الباب .

لم تعد تطبق احتمالاً ، فقد حسبت الامر كله مناوراً . تركت سريرها في الظلام واتجهت نحو النافذة التي تطل على صحن البيت وامعنت النظر في الممثلين القلائل . فلم تسرها وجوههم البتة . كانت الممثلة المجهولة تروح وتغدو في حماس وقصد حملت اوراق دورها وهي تردد دياالوجها - لسوف تشرق شمس جديدة على هذه الارض المثقلة بالاحزان - ولسوف نغدو سعداء ...

فيرد فائق - ونحن الاثنين ما الذي سنفعله ... الخ .
هزأت هناء - ما الذي سيفعله . لا يدري . كأنه صبي لم يتزوج بعد ولم ينجب ولدين اثنين - كانت تمثل في براعة فائقة ، وكأنها ممثلة عريقة

متمرسه سلخت عمرها على المسرح ، بينما هي تمثل لأول مرة . وكانت بادية
الامر خجولة مترددة ، تساقط من فمها الكلمات كما تساقط قطرات الماء من
القمم الادرد . تمتعت هناء - انها ليست على مثل هذه البراعة عندما اكون الى
جوارها ولعلها تخفي عواطفها كيما تخدعني وتبدد ظنوني . .

اعلنت الساعة العاشرة . فقدرت هناء ان عدد الموجودين قد اصبح
ثلاثة . زوجها والممثلة المجهولة وذاك الصعلوك الاخير الذي يصطحب الممثلة
الى بيتها ويقوم بحراستها في الطريق ولا يؤدي عملاً آخر . كانت تشعر بالنعاس
يثقل جفניה ، فغالبته في اصرار وقعدت فوق السرير ترنو الى ولديها النائمين
في سرير واحد ، وهما يتنفسان في لطف ووداعة .

لكم بدلتها الايام . كانت هي الاخرى فيما غبر من الايام ممثلة مجيدة
تظهر على المسرح وتلقي دورها في جدارة فيصفق لها المشاهدون وتحنى لهم
شاكرة . كانت تمثل بأسم آخر ولعل الناس يذكرون مديحة يوم مثلت دور
عبلة وليلى وكليوباترا الى جانب زوجها فائق ، ولكنهم لا يذكرون هناء الساهرة
في غرفتها تنتظر ان ينهي زوجها بروفاته مع الممثلة الدخيلة المريسة
ويأتي اليها .

لقد احبت فائقاً في صباها وتدلته به تدله العاشقات . كان انذاك
ممثلاً صغيراً قليل الشأن متفانياً في خدمة الفن . اختصم مع اخيه الكبير
ذات مرة خصومة مفتعلة وهجر البيت الكبير المريح والتجأ الى غرفة حقيرة
في فندق متواضع من غير فراش محترم واقتات بأيسر الاطعمة من اجل ان
يذوق طعم المرارة ويجرب شظف العيش ، ويتشرد على حسد تعبيره ، كما
تشرد من قبل نجيب الريحاني وعزيز عيد ويتلقى دروساً من الحياة نفسها
لامن جدران المدارس ، ولولا ان يتداركه اخوه ويعيده الى البيت لكان فائق

قد مات جوعاً .

كذلك كان فائق في صباه ، وقد احبته هناء واصطفته صديقاً في بادية
الأمر ، يقومان ببروفات منفردة ، ويحفظان ادوارهما معاً ، ويتحدثان عن
مستقبل الفن ويقسم احدهما للآخر ألا يرتقى خشبة المسرح الا مع صاحبه
وعجبت هناء كيف خانت قسمها هذه المرة ، وغدت تصنع القوة والشاي
للممثلين بدل ان تنخرط في صفوفهم وتمثل الى جانب زوجها . فقد قاومت
فيما مضى الامها ودارت حملها طوال اشهر وسترت بطنها الكبير وراء
مشدات قاسية ولم تخلف عن دورها في يوم .

- اعلنت الساعة العاشرة ، ولم يعد ثمة صوت يمكن ان تلتقطه الاذن
من اي مكان ، فقد خيم السكون في ارجاء البيت ، وارتفعت وصوصة الفئران
من المطبخ ، قال زوجها في رقة ...

- بروفة اخيرة على ان تكون بالغة الجدة وحماسية . ارجو ان تطلقني
العنان لعواطفك كما اطلق العنان لعواطفني نحوك - فأجابت الممثلة .
- اية عواطف لي نحوك ، كلها الى حد .

فشعر فائق بالحجل والارتباك ، اذ لم تكن ملاحظته في مكانها .
هزأت هناء - لقد طاش صوابه ، كذلك كان يفعل ايام غرامي معه
يسمو عن دوره ويشرع بمغازلتي ، لم يعد في الامر شك ، فغلبها التأثر وعادت
الى سريرها حانقة منجزة تقلب وجوه الرأي لوضع حشد لهذه المسرحية
المزدوجة التي تمثل على مسرح بيتها . لامت نفسها لانها لم تضطلع بالدور
ولامت زوجها لانه لم يقترح عليها ولم يشجعها ولم يكثرث لمواهبها ، ولو تكن
تدري ان جنية داهية ستنبثق في بيتها وتهدد سعادتها وتصرف عنها انظار
فائق واهتمامه .

احست هناء ان قطعة ضخمة من الزمان قد تسد تصرفات قبل ان يبرز فائق في وسط الغرفة وعليه بيجامته الخضراء المجددة وهو يخلل شعره براحتيه ويتنهد تعباً ، سألته هناء .

- هل انتهت البروفات ؟ فأجاب

- انتهت ، انها اليوم في غاية الاتقان . لشد ما أنا معجب بقوتها . كنت ابحث عن وجه مثل وجهها فلم اوفق ، كنت اتحسر على صوت نسوي حاد معبر مليء فلم اعثر عليه ، انها الممثلة التي كنت اريدها لمسرحي افتح بها العصر الجمهوري الذي اهل علينا منذ اشهر .

سألت هناء بعدم ارتياح - ترى هذه كل صفاتها التي جعلتك تفضلها على سواها من الممثلات - فوضح لها فائق وهو يستشعر ديب الغيرة في صدر زوجته .

- انها جريئة مناضلة ، قتل زوجها في السجن حقيقة وواصلت النضال حتى انبثاق الثورة . انها تمثل حياتها ، وهذا امر يندر ان يحدث ، وان حدث فتكون المسرحية قد ارتفعت الى الذروة وحققت اعظم نجاح . قالت هناء باختصار وتحد - انني اراها صعلوكة

- ارجو ان تحسني الحكم على الناس - فلم تطلق هناء صبراً فأزاحت اللحاف وتقدمت نحو فائق وحادثته بنظرة غيظ وقالت - اذن قد أكون انا الصعلوكة التي تسمح لزوجها ان يعبث على هواه ويغازل بطلته المناضلة

فبهت فائق لصراحتها غير المعهودة وحدثق فيها مليا وقال - هناء ، انها فرصتي الوحيدة لآكون بطلاً من ابطال المسرح - وانها فرصتي الوحيدة من اجل انقاذك من جبانلها

- تريثي قليلاً وامعني النظر . انني قد تجاوزت الاربعين ولي ولدان
وانت زوجة كريمة . تعلمين كم سهرت وكم تصببت عرقاً وكم اهرقت من
حبر واتلفت من ورق من اجل ان اكتب مسرحيتي - شمس الغد - ان كل
عبارة سطرتها في المسرحية خرجت من دمي وهي عصارة ذهني . . . وها انت
تخرفين وتهذين وتغرقلين مشروعي .

هتفت هناء وتكاد العبرات تخنقها « كيف لا انها تغازلك ، تريد ان
تختطفك مني . تتعلل بشتى الاعذار من اجل ان تخلو معك »

قال فائق وهو يكاد يرثي لتصوراتها

- هناء انني لست كالأمس ، كنت امثل عنتر ومجنون قيصر ، فأبكي
وانتحب واهرع الى الاطلال وأنت عيلتي وليلاي ، تنتحبين وراء الحباء ولا
تملكين لنفسك نفعا ولا ضراً . كانت كلمات المسرحية بالامس تنقح غير مرة وترش
وتكنس وتعرض للتحريف والاضافة من اجل ان تسلم من سيف الرقيب .
وثمة عشرات الكلمات كان محظوراً التلفظ بها في ايما مسرحية كنا الملك
نحرفه الى سلطان ، والثورة الى فتنة ، والشعب الى ناس ، والطبقات الى فئات ،
والنضال الى تظلم ، والبلاط الى قلعة . ان ثورة تموز اعادت للكلمات اعتبارها
وسميت الاشياء بأسمائها وانحسر الستر وانجابت الظلمات . وها انا اشق
طريقي وامضي الى الامام في جو طلق حر سعيد .

- اترك الدور لي - سألته في جفاء ، وهي تخزره بعينها المغضبتين .
تريث فائق لحظة ليصوغ جوابه دون ان يمس عواطفها ثم قال آسفاً .
- لا يمكن يا عزيزتي انت الان بعيدة عن فهم هذا الدور ، انت

لازلت تعيشين في عالم ليلى وعبله ، وانا اليوم نجسد ثورتنا على المسرح ، نعرض
خطوطها ونعمق مضمونها ونجلوها باهرة النور تشع على العالم كله . . . قد

تنتظرين بعض الوقت - وهم ان يقترب من السرير ليستلقي فوقه .

قالت اخيراً - اذن تستطيع ان تدبر امورك بنفسك ، فاني منصرفة صباح الغد الى بيت والدي - واتخذت سبلها الى الغرفة المجاورة واقفلت من ورائها الباب .

مع الفجر نفذت هناء ارادتها باصرار ، حزمت ملابسها في صرة كبيرة وحملت ابنتها الصغير بذراعاها واقتادت الكبير من يده ومضت الى بيت والديها ، فوقف فائق على متكأ دارابزون الطابق الثاني وهو ما يزال بشباب النوم يرقب بحزن بالغ وأسف عظيم حركات زوجته وانفعالاتها . تلك الزوجة التي كانت الى وقت قريب اثيرة على قلبه ، لا تتخالجه فكرة دون ان يشها اليها ولا يخطو خطوة دون ان يستشيرها ويلتمس رأيها ، واذا انقطع عن التمثيل يضع سنين انقطعت هي الاخرى بالتعبية بسبب فساد الاوضاع والتضييق على الفكر واستحالة ارضاء الضمير بفن باهت مكبل يتنكر لواقع الحياة ولا يخدم فكرة شريفة . واذا ما قامت الثورة وتحررت البلاد وانطلق الفن من اساره القفصي وبزغت ايدلوجية جديدة قلبت الافكار كلها ، لم يكن في وسع هناء ان تماشي الركب وتنطلق مع المنطلقين فقد جمدت وتوقعت وترسبت تحت السطح كما تترسب المادة المخاطية الثقيلة التي تعكر صفو الماء الرائق .

الا ان فائقاً احتمل صدمة فراقها على مضض وصار يستقبل الممثلين في المساء وحده ويختار في أمور ضيافتهم ، فقد يفور الماء في الاناء وينسكب او يتحول الى بخار قبل ان يوفق فائق الى رفعه ، ويغلي الشاي ويبقى ويفقد طعمه وهو منشغل في توضيح بعض الملاحظات لممثل يأبى ان يفهم دوره .

وسألته الممثلة المجهولة ذات مرة ، علام هو وحده من غير زوجته واولاده ، فأحمر وجهه خجلاً واختلق لها كذبة بيضاء . الا ان طبيعتها النسوية غلبتها ،

فصارت تعين فائقاً وتختل في المطبخ ربع ساعة او يزيد من اجل ان تصنع الشاي والقهوة ، وكانت ذات مهارة في ادارة امور البيت .

اما النفايات والالوساخ واعقاب السكائر فكانت تملأ الارض وتتراكم يوماً بعد يوم حتى غدت تعرقل تحركات الممثلين ، فقوجى الجميع ببطلة المسرحية الانيقة تحمل مكنسة وتعيد للارض رونقها ونظافتها ، وكثيراً ما كانت تلقى الاكواب في الزوايا او على النوافذ فتتحطم او تداس بالاقدام ، فينحني فائق ويجمع حطامها بيديه ويحمله الى المزبلة ، وتعذر عليه ان يحظى بأكلة شهية مريحة ، فهو يتنقل بين المطاعم ويلتهم شتى الاطعمة التي كانت تورثه في الليل الماوصداً ، واحياناً يتقيأ ويشتهي كوباً من الشاي فيجد نفسه وحيداً في البيت .

قاوم بصلابة ورجولة حقبة ، وأقام على البروفات في مواعيدها بهمة لا يزعزعها اليأس ولا يفت في عضدها احتجاجات هناء وانصرافها . وشعر ان صحته ليست على ما يرام ، فصار ينتابه الارق فأضطر من اجل ذلك الى الاسراف في التدخين ، فيستيقظ مبكراً ويهرع الى عمله النهاري ويعود في المساء تعباً مكثوداً ما ان يستريح ساعة من الزمن حتى يفقد عليه الممثلون تبعاً ويمكثون الى نحو منتصف الليل .

وقد ذكرت صحيفتان او ثلاث اشياء عن مسرحية - شمس الغد - في حقها الفني ونوهت بجدارة فائق وماضيه اللامع وهمته القعساء ، واعلن ان المسرحية في طريقها الى العرض بعد ايام قليلة ، فطبعت البطاقات وصمم الديكور حسبما يميله عليه ذوقه الفني وخبرته الطويلة .

وحل يوم العرض . غصت القاعة بالمشاهدين فأزيجت الستارة في مياعدها المضروب وبرز الممثلون ينطقون بكلماته الرصينة الموفقة ، ما ان

ينتهي احدهم من دياالوج حتى يعلو التصفيق ، كانت المسرحية كلها تندد بالاستبداد وتهيب بالشعب الى الثورة المسلحة بوجه الحكومة الغاشمة ، فيقتل من جراء ذلك بعض المناضلين ، وتجرد الشرطة حملة شاملة للقبض على المشبوهين . ويزار الشعب مرة اخرى فاذا هو كالأعصار العاتي المدمر فيقتلع الظلم من جذوره ويطوح بالحكومة الخائنة وتنهزم الرجعية شر هزيمة .
كان انتصار المسرحية ساحقاً ، وتواصل التصفيق في غير امهال واطنبت الصحف في مدحها والثناء عليها .

وفي كل ليلة كان يأمل فائق ان يعثر على هناء بين المشاهدين ، فكلما القى دياالوجه الذي استفزها آسف على حماقتها وتصوراتها . الا انه رآها آخر ليلة قد اقتعدت كرسيأ امامياً ومعها ولداهما الصغيران . كان المشاهدون يصفقون وكانت هناء تكاد تبكي من فرحها وكان ولداه يومئذ اليه ويهتفان - بابا بابا - فاختلفت شفتا فائق وكاد يرتكب هفوة وهو على المسرح متقمص دوره سالب اعجاب المشاهدين . وما ان نزلت الستارة على الفصل الاخير ، حتى انفجر التصفيق في كل مكان . وهرع اليه الصحفيون يهتفون ويلتقطون له الصور ..

لم يعد الكرسي يتسع لهناء ، ولم يعد المكان كله بقادر ان يحتويها من غير ان تضيق به ، فاخترقت الصفوف مع ولديها وشخصت وراء الكواليس ، فلقبت فائقاً يتقبل التهاني وهو لما يزل بملابس المسرح والمكياج يلطخ وجهه ، فارتمت بين ذراعيه وغمغمت بندامة - قدنى الى البيت - فلم يعنفها فائق ولم يزجرها ، بل مسد يديها وكفكف دموعها واحتضن ولديه ومضى بهم جميعاً الى البيت .

وحينما قدمت المسرحية في المرة الثانية بعد بضعة أشهر كانت هناء
هي البطلة المناضلة تمثل الى جوار زوجها وغدت ممثلة كلها صلابة وعزم ،
واختفت من حياتها عبلة وليلى والانتحاب وراء الخيام .
ولا تزال نوبات الندم تنتابها من جراء ما سببت لفائق من متاعب لم
يكن لها مسوغ سوى ارضاء حماقتها وغيرتها .

اعجوبة العذراء

كان كاهن البلدة يقطع الطريق في غير عجلة ، قد التف بلباسه الاسود الداكن مدخلاً كفيه في اكمام ثوبه الواسعة ، قد غمره سواد الليل الحالك ، وعبثت بمسوحه ريح باردة رفيقة ، أهاجت أغصان الشجر فأطربتها بوشوشة موصولة اشبه بالهمس . كانت وحدها تكافح السكينة المطبقة وتلطف من وحشة الطريق .

كان الكاهن قد خرج من توه من بيت رجل كانت والدته في مرض شديد ، وهي عجوز ممرضة دانية الاجل ليس الى برئها من سبيل ، فهض الكاهن بواجبات الكهنوت . رفع فوق رأسها المنطرح على الوسادة صليبه النحاسي الكبير ورتل بعض الادعية وعقف اصبعاً وبسط آخر راسماً بهما خطوطاً في الفضاء فيما كانت شفتاه المختلجتان تههمان في وقار وجد .

قالت المرأة - انني سأكون مدينة للعذراء بدسنة من الشموع ان انعمت علي بالشفاء وردت لي عافيتي - فطمأنها الكاهن في قوة - «ان العذراء تصنع الاعاجيب» - واستطردت المرأة تقول في وهن واكتئاب «وانني سأحمل الشموع واضيئها للعذراء» - فأجاب الكاهن - «سيكون ذلك اعظم جزاء على نعمتها وفضلها .»

ثم قام الكاهن الى العشاء فأصاب منه حظاً كبيراً ، فيما كان طيب البلدة الوحيد يقوم بفحص المريضة فحصاً يائساً لا ينفعها في شيء سوى تسهيل أمر دفنها بشهادة الوفاة فيما لو قضت نجها في الليل ، ومع ذلك فقد

نهض هو الآخر بواجبه التقليدي . كتب لها وصفة مقوية . هي قنار ملونة زاهية محفوظة في العلب يقال انها ترد العافية وتذهب بالداء .

كل ذلك وقع على مرأى من الكاهن . فقدر ان اجرة الطبيب باهضة من غير ريب وقيام الادوية كبيرة ، وهي في الغالب لاجدوى منها سوى التباهي والتفاخر امام الناس وراحة الضمير من ان المريضة قد نالت كفايتها وفوق كفايتها من الدواء ولم يفد معها نطس الاطباء وفحوصهم ، وكانت ارادة الله في النهاية أقوى وانفذ .

فكر الكاهن فيما هو يتخذ سبيله نحو الكنيسة ، ان الرجل الذي استدعاه الليلة للصلاة على امه المريضة مبسوط الحال ميسور الرزق ، فهو ينفق المال في سخاء من اجل شفاء امه ، وهذا ما يفعله الابناء الصالحون الاخذون بسنة السلف . انه بائع خمور في البلدة وقد واثاه الحظ فتجمع بين يديه مال كثير من اولئك العاملين في حرث الارض وتربية الاغنام والمتكسبين بضروب التجارة الصغيرة . وهم في الغالب كتل شبه معدمة تتجه الى دكانه في الامسية وتلوذ بالزوايا المعتمة ترتشف كوؤوسها على مهل وتلهي بقضم حبات الحمص البارد ونهش الخيار المملح .

ليس هذا موضع اهتمام الكاهن في المحل الاول ، فالمال يأتي بايدي الناس اتياناً طبيعياً مشروعا طالما لايسألهم عنه القانون ولا ينتهي بهم الامر الى السجن ، انما يضمن عليهم وقاراً وتجلة ومكانة ، وهو بدوره ابن الكنيسة البار الذي اعتكف عشر سنين في الدير يتعبد ويدرس اللاهوت سيصيب قدراً طيباً فيما لو اختار الله الي جواره العجوز الورعة المشرفة على الموت . فمئذ نحو شهر لم يرتحل الى الآخرة انسان ، وكان آخر من شيع الكاهن الى مشواه الأخير ، رجلاً ثرياً وجيهاً يملك بستاناً كبيراً للفستق تجري المياه

لاسقائها ثلاث ساعات في اليوم الواحد ، وفوق هذا فهو نائباً وعضواً في البرلمان . لقد مات ذلك الرجل وصلى الكاهن على جثمانه في الكنيسة والقي كلمة تأيينية مناسبة تقال عادة في تأييد الوجهاء واحرق البخور ورتل الادعية ورافق النعش حتى المقبرة . وكان اول من امال عليه التراب .

في الربيع الماضي قدم هذا الكاهن الى البلدة . كان فقيراً طاوياً يتعثر بثوب اسود ناصل اللون ، يحمل برأسه ولحيته مقداراً كبيراً من غبار الطريق ، فراح من يومه يتسقط بجسده هنا وهناك لجمع الاموال لشراء ناقوس وسجادة . اذ كان برج الكنيسة بغير ناقوس وكان المذبح بغير سجادة ، وها قد مضت عدة اشهر تجمع في يديه مبلغ يكفي لشراء ناقوسين وسجادتين ، ومع ذلك فلن يرن صدى لناقوس ولم يستر طابوق المذبح أية سجادة .

ان همسات مرتابة أخذت تروج على الالسن على شكل تبرمات واحتجاجات ، كانت تبلغ اذنيه وكأنه لا يسمعها . كانوا يقولون ان في جيب الكاهن قائمة باسماء الناس الذين يتطفل على موائدهم في الفطور والغداء والعشاء ، وانه قد وضع تصميماً صارماً ألا ينفق فلساً واحداً ولا يوقد ناراً . وحتى الماء الساخن الذي يستحم به يجلب له من رجل القاطرة ، ويقولون انه يرضن على الكنيسة ان يعين لها بواباً او خادماً او حارساً يقف عند بابها او يجلو عن ارضها الغبار ، فهو ينهض بهذه المهام الدنيا ويحمل المكنسة كما تحملها اية خادمة طيبة .

حدث ان جابهه ذات يوم احد الشبان بسيل من التهم الموجهة والكلام القارص الشديد . لقد نعته باللص والمرابي والخداع والمتطفل على موائد الفقراء وطالبه بالناقوس والسجادة ولولا عفته مع النساء لكان من الممكن ان ينعته براسبوتين . قاستشير الكاهن استشارة بالغة وتدقق الدم الى

وجنتيه وصبغ اذنيه بلون الارجوان . وكما يفعل العاجز الذي لا يطيق سماع الحق ولا يعترف به ، فقد رفع كفه الثقيل ولطم الشاب في ملء وجهه ، وكادت تقع فضيحة إلا أن الكاهن الحصيف تداركها بشكل لم يكن خافياً على ابناء البلدة ، وهي ابلاغ امره الى السلطات باعتباره انساناً مشاغباً يهدد الامن بشر خطير ويروج للفتنة ويوهن الايمان في صدور الصالحين . كانت كلمة واحدة تكفي لكتم انفاس هذا الشاب وتشريده ، الا انه اختفى بنصيحة ناصح وتلاشى خبره ولم يعد يسمع بذكره انسان .

كان ذهن الكاهن مكدوداً طوال الطريق فقد حسد الطيب على ارباحه الطائلة حتى وان مات مرضاه ، وحسد الصيدي ، ذلك العقائري الماكر الذي يمزج الخبر بالماء ويقدمه للناس . اما ربحه هو ، الكاهن الجليل الموقر بلحيته ومسوحه وصلبيه فلا يربح الا القليل النافه ولا يتحقق ربحه الا بموت المريض والسير وراء جنازته وحضور الصلاة على روحه . وان بعضهم أخذ يستغني عن خدماته ولا يكرمه شيئاً في الاعياد بل ولا يلثم يده ولا يرجوه البركة ويسلك تجاهه وكأنه انسان من عادي الانسان . انه لامر مخزن ،

انتهى به المسير الى باب الكنيسة الحديدي الكبير ، فاخرج من طيات ثوبه الكهنوتي مفتاحاً ضخماً دسه في ثقب الباب واداره بقرعة فانفتح عن مجاز طويل معتم كتيب ينتهي في ساحة كبيرة مرفوع في بعض جوانبها صلبان من الخشب فوق اضراحة الموتى القلائل الذين لم يرهقهم الثمن الذي تفرضه الكنيسة على اجداث الموتى الراقدين في ارضها . وقبل ان يعرج الى غرفته المنعزلة الصغيرة بأثاثها القليل العتيق مضى الى مؤخر مبنى الكنيسة حيث يحفظ الكاهن هناك مخزونه من المؤونة ليلقي نظرة فاحصة على دجاجاته ،

فوجد ان دجاجتين من كبريات دجاجاته قد وضعت بيضتين ، فأنحنى فوق القفص والتقطهما في استبشار وفرح وعاد الى غرفته .

فكر في المرأة الورعة فيما هو ينضو ثيابه ويتأهب للاندساس في الفراش . انها قد لا تصبح صباحها ، قد تموت في الليل او عند الفجر او مع صياح الديك ، فالنفس لا تدري متى يأتيها السارق ، كذلك يذكر الكتاب المقدس ، وان من غير احتمال للشك ان بائع الخمر وسيأتيه وشيكاً ويقرع باب كنيسه بشدة وينتحب في المجاز سافحاً عبراته السخينة على امه الميتة ويقول : - لقد توفيت احضر التشيع - ولسوف - يرد ليرحمها الله رحمة واسعة فمن يموت مؤمناً غير متخلف عن صلاته ، موقداً شموعه للعدراء فله الجنة والملكوت -

اضطجع في فراشه وهو يقظان ونائم ، متوقفاً ان تخبط قارعة الباب في اية لحظة ، وها ان خيوط الفجر الفضية الشاحبة شرعت تلتمع وراء ستار النافذة وترأت المزارع الخضراء تحي الشمس المذهبة . وفي عجلة ملحوظة اتم اعماله الصباحية معتزماً ان يعود المريضة عند الظهر ويتناول الغذاء مع ابنها . فحمل مفتاحه الضخم ومضى الى المجاز . وقبل ان يبلغ انتهاء ارتفعت القارعة وخبطت الباب قال في نفسه - ها انهم قد جاؤا - ففتح الباب ورأى امامه رجلين يسندان المرأة المريضة من الجانبين . كان ابنها بائع الخمر ومساعدته . قالت المرأة في ضعف وامتنان - ايها الكاهن الطيب لقد انعمت على العذراء بالشفاء وها انتي ابر بوعدي . هذه شموعي جئت اوقدها عند قدميها - فتمتم الكاهن - انها من غير ريب اعجوبة العذراء . . اجل انها اعجوبة الاتموت في الليل .

سارق الكلاب

لم يكن حسن مولعاً بتربية الكلاب ، ولم يكن يحلم ان يأوى ذات يوم كلباً في بيته ، غير انه صادف في احدى تجوالاته في ارجاء المدينة كلباً صغيراً قصير الاقدام ابيض الشعر ناعم العينين تطوق عنقه جلدة رثة مذهبة بمسامير من النحاس .

كان هذا الكلب البائس المرتجف من الخوف قد وقع في قبضة صبي زقاني حاف ارمد العينين غولي الخلقة ، راح يجره بحبل رفيع ، ويركبه بقدمه فيجري وراءه الكلب المحتمل عذاب الهوان والقسوة في ثقل واعياء .

كان حسن عاطلاً ليس منذ اسبوع ولا منذ شهر وانما منذ ستة اشهر وهو التاريخ الذي انجز فيه بناء مدرسة الهندسة حيث كان حاسباً المواد البناء . كان يقرأ في بعض الاحيان جرائد مجانية تقنع بين يديه في المقهى فيستخلص من سطورها اخبار الجرائم والاحداث البارزة في البلد ، وكان قد رأى الى صورة ذلك الكلب منشورة في صحف الصباح ، وقد دهش حسن لاهتمام الناس بأمر كلب من الكلاب ، وهو حيوان مرذول تقتل منه الحكومة المئات كل سنة ومئات اخرى يقتلها الجوع والجرب ، ودهش اكثر من هذا ان تكون للكلب صورة كما تكون للادميين . فالادميون ملزمون بتقديم تصاويرهم للصقها على جوازات سفرهم وشهادات عدم محكوميتهم ومواها ، فهل يمكن ان تكون للكلب حاجة من تلك الحاجات .

كان الاعلان قد نشر بهذا الشكل - فقدان كلب -

يرجى ممن يعثر على كلب ابيض صغير من نوع سبلك الموجودة صورته
اعلاه والمفقود في شارع ابي نؤاس دار رقم كذا ان يعيده الى صاحبه وله
مكافأة قدرها خمسة دنانير .

اذن عثر حسن على الكلب المفقود وهي فرصة طيبة تدر عليه بعض
الربح للتخفيف عن عسر حاله وخواء جيبه .

كان معه اربعون فلساً فقط . كانت في الصباح الباكر درهما فضياً
استحال بين يدي القهوةاتي الى اربع عشرات ، اثنتان حمراوان واثنتان
بيضاوان . تقدم نحو الصبي بمصطعاً الشدة والحزم - ايه انت ايها السارق
من اين لك هذا الكلب . ؟

فتبجح الصبي في غير مبالاة .

- انه كلي ماشأ نك انت .

- ليس لك بك ايها السارق انه كلب الناس ، كلبنا نحن .

خطف حسن الحبل من يدي الصبي ولوح له بيده مهدداً بلطمة موجعة
فاذعن الصبي بعض الشيء وقال - ان كان هذا صحيحاً فيجدر بك ان تعطيني
اربعين فلساً فقد اشتريته بعشرين واطعمته رغيفين من الخبز ، انني لا ابالغ .
وجد حسن ان الازهاب والوعيد لن يجديا نفعاً مع هذا الصبي ،
فهو ان غامر في الدفع والشدة فلن تكون النتيجة اكثر من تدخل الشرطة وضياع
الكلب وضياع المكافأة بالتالي . فالاربعون فلساً اجدى نفعاً وضمن سلامة
وادعى الى التستر والحيطة ، فرش بها وجهه الصبي حتى تبعثرت على الارض .
قال في تفضل - خذ ولا تثر جدلاً اخر والا ابلغت امرك الى الشرطة
فيضعونك في السجن - ، واذ ما غاب الصبي في المنعطف امسك حسن بزمام
الكلب وراح يمعن فيه النظر ويدرسه في تفحص وعناية ، فلم يقم في ذهنه ايما

شك في هويته ، فهو نفسه التي نشرت صورته في صحيفة الصباح ، فحمله تحت
ابطله سالكا به اضيق الدروب خشية ان يتعرف عليه احد الناس فينازعه فيه .
وفي البيت هبت في وجهه عاصفة احتجاجية تمثلت في غضب امه التي
تكراه الكلاب كلها وتحمى صحبتها ، فهي في زعمها عدوة المؤمنات لقلاقة
باوعية الطعام ، موسخة حاملة للبراغيث والقراد ولا يصح ان تقام امامها
الصلاة . فاكد حسن لامه ان هذا ليس كسواه من الكلاب فهو ثمين محب
لقية صدقة ولسوف يحمله الى اصحابه فيكافؤنه بخمسة دنانير . فانبسطت
أسارير الام ببعض الشيء وزجت ان كان لامناص من استبقاء الكلب بضع
ساعات فالأفضل ان يربطه باحكام عند الباب ويبعد عنه الاوعية والملاعق
والفرش والاعطية فاذعن حسن لتعليمات امه واخذ بها جميعاً ، ثم اضطجع في
الطراز مولياً وجهه شطر الباب لمراقبة حركات الكلب والايماء له .
قالت الام حال ان تهاى حسن لمغادرة البيت مع الكلب .
- لاتنس السكاير والقهوة والسكر .

فاجابها حسن

- ولسوف ابتاع قميصاً وسروالا وحذاء .

فسرت الام ورجته بحرارة المؤمنات المقيمت للصلاة ان يكثر من
غسل يديه وجسده بالماء وليفعل ذلك في حمام عمومي حتى يتطهر من ارجاس
الكلب ، فوعدها حسن ان يمثل امرها .

وفي شارع ابي نؤاس تبدت القصور الشاهقة وترف الموسرين وقد
لقى حسن ضالته في غير عناء . كان قصرأ ذا طابقين مشيداً بالاجر الاصفر
وعلى النوافذ ستائر معدنية وكان الباب الحديدي موارباً بعض الشيء وكذلك
الباب الخشبي الكبير المفضى الى جوف القصر ولاحظ حسن ان ثمة امرأة

تتأرجح في المجاز النظيف المفروش بالبسط على كرسي هزاز يتجرجر من حولها فستانها الحريري ذو لون وردي جميل ، وما أن أحس الكلب أنه في مأمنه ومكان أهله وصاحبه حتى صار يتململ ويهر ويريد الإفلات بقوائمه الصغار فهتفت المرأة في شبه خبل .

- اواه بوبي العزيز - فتقدم حسن نحوها فتلفقت المرأة الكلب من بين يديه وضمته بقوة الى صدرها المرمرى الناصع البياض وراحت تلاعبه في حنان بالغ دون ان تضيرها وساخته . قال حسن في فخر وخيلاء .

- لقيته في اسوأ حال ، كان تحت رحمة صبي شقي راح يجره بالحبل ويركله بقدمه فيلهث المسكين تعباً وجوعاً وعطشاً وكاد يفتك به لولا ان اتدركه من بين يديه واحمله اليك - فلطمت المرأة كفيها في اسي رائثة لحال كلبها العزيز ، لقد اتسخ وجاع . انظر انه يلهث من الازى ، يا فرحتي يا سروري كنت اعيش من دونه اشبه بالام التي اضاعت ابنها - كان يبدو ان المرأة مقعدة تشكو داء في ساقها مع انها فاتنة القسمات عامرة الصحة متوردة الوجه تفيض استقرابية وترفعاً وبذخاً ، فكر حسن انه من غير ريب كلب محظوظ لكم يسره ويهيج جوارحه لو نال عشر معشار هذا الحظ ، وهو حسن الانسان الرجل المفعم حيوية ونشاطاً .

أمرت المرأة وصيفتها ان تمنح حسن خمسة دنانير وتسقيه قدحاً من الماء البارد وتودعه عند الباب ، فخرج حسن الى الرصيف مبرد الجوف تقبض يده على ورقة خمسة دنانير ، فنفذما اعتزم عليه . ابتاع لاهمه السكر والشاي ونحو مئة سكاراة ذات عقب ، كما ابتاع لنفسه سروالا من قماش الخاكي وقميصاً امريكيا قصير الاكمام وحذاء صيفياً ذا سيور .

مضى نحو شهران وعطالة حسن اخذة في التماذى دون ان يدركها

منقذ ومخلص، فالقميص تداعي فوق كتفيه وتشقق الحذاء بفضل حرارة الصيف وتملصت بعض سيوره وغدا سرواله رثاً بالياً .

كان يقرأ الصحف بانتظام مؤملاً ان يعلن الناس عن كلب ضائع فيجرد للبحث عنه حملة قوية حتى يعثر عليه ويفوز بالمكافأة . وكان أحياناً يجتاز بشارع ابي نؤاس في الامسية القائظة فيجد فستان المرأة مهدلاً على الارض النظيفة وهي فوق كرسيها الهزاز محتضنة كلبها العزيز تلاعبه وتداعبه ، قد اقفلت الباب الحديدي على سبيل الحيلة ضد اللصوص . وقد فكر حسن لو ان هذا الكلب سرق مرة اخرى فليس بوسعه ان يعيده الى صاحبه لانها قد تظن به الظنون وتحسبه هو السارق في المرة الاولى وتبلغ عنه الشرطة . وفكر ايضاً ان بإمكان رجلين ان يتعاونوا في تنفيذ مثل هذه الخطوة . يسرق احدهما كلباً من الكلاب المدللة وينتظر بضعة ايام ريثما يعلن عنه في الصحف فيحمله الاخر الى اصحابه وينال المكافأة .

كانت ازمة الجوع اخذة بخناق حسن، فهو في هذه الايام مفلساً تمام الافلاس ، وغدت ذكرى الخمسة دنائير اشبه بحلم مائع لن يتكرر بغير تدبير عاجل وجهد سريع ، فالتم يفقد الناس كلابهم المدللة فلا بأس ان يعمل هو باي طريق متيسر كيما يجعلهم يفقدونها ، فان لم تقع المعجزة فتدبر انت امرها كما يقولون في الامثال .

كانت امام حسن قضيتان ، هما تعيين الكلب اللائق للسرقة وتعيين الشخص اللائق لمعاوته ، اما القضية الاولى فقد حلت بيسر اذ لقي في احدى جولاته في جهة المسبح كلباً مدلاً غاية الدلال ، غزير الشعر غريقاً بصوف حليبي من خطمه الى برائن اقدمه . كان هذا الكلب المنعم الغاطس في حشايا الحرير والدمقس والمتقلب في احضان شحيمة ناعمة والممسد بانامل رخصة

عاجية كان اصغر من كلب ابن نواس وأدق منه قواماً واخفضر بطناً وافتن
جمالاً واروع شكلاً . كان هذا الكلب في صحبة امرأة ايضاً ليست عراقية
ولا عربية قد تكون في الغالب امريكية . وهي فارعة الطول ممشوقة القوام تستل
حذاء عالياً تضرب به الارض في وقع رتيب متساوق . قال حسن . لنفسه ان
المكافأة هذه المرة لاتقل عن خمسة عشر ديناراً ، اذ بهت لهيام المرأة بكلبها
فقد تكون ليلي قريبة الى قلب قيس ولكن ذلك الكلب كان اقرب منها الى
قلب صاحبه .

كان مطوقاً بحزام جلدي يلتف حول بدنه كله ، مشدودة به سلسلة من
الحديد تنتهي بعروة تدخل في معصم المرأة كلما اصططحته في نزهتها المسائية
المحتومة في كل يوم .

اما معاون المنشود فلم يوفق حسن للعثور عليه . كان يستحي بفكرته
من ان تقابل بالهزوء والسخرية وانتهى به الامر الى قرار ، هو ان يخطف
الكلب بنفسه ثم يبحث عن يعيده الى صاحبه زاعماً لها انه عثر عليه
بالصدفة فتكون المسألة في غاية السهولة .

قرر حسن ان يترصّد الكلب ويسرقه ، وفي خلال ترده المستمر
لبضعة ايام في جهة المسبح لاحظ ان المرأة تترك كلبها موثقاً الى شباك
النافذة بين الساعة السادسة والسابعة والنصف حيث تستقبل ضيوفاً كثيراً
ينهمكون في رقص سريع تصحبه موسيقى جاز صاحبة تصم الاذان .

كان مساء معتماً من غير قمر ولا نجوم ، فترصد حسن المرأة نحو
نصف ساعة حتى اقبلت من نزهتها المسائية فاوثقت الكلب الى النافذة ومضت
الى ضيوفها لتراقصهم على نغمات الجاز . وهدرت الموسيقى واخذ الرجال
بحضور النساء ودارت الحلقات اشبه بالدوامات العنيفة وتملك القسوم حال

من الوجد الصوفي، فتسلل حسن عبر الحديقة مخففاً الوطء محترساً محاذراً حتى بلغ النافذة وحل وثاق الكلب وحمله تحت ابطه وهم ان يعود الا ان الحظ خذله في آخر لحظة، فقد ابصر به احد الضيوف ودفع عنه مراقبته في الحال واندفع الى الحديقة هائفاً في غيظ - احدهم يسرق الكلب -

وخف من ورائه جمع من الرجال ، واقبلت المرأة في اعقابهم مهلوعة الفؤاد مصعوقة فاطبق جمعهم الكاسر على حسن كما يطبق الفرسان على ابن اوى، وفرفسته المرأة في خاصرته وتبرع له اخر بلكمة خلخلت اسنانه واسالت من فمه الدم . ان حضارة الجاز الامريكية ورقصات السامبا لم تخفف من ضراوتهم، فاقترادوا حسن الى المركز وقد رثت اسماله اكثر من ذي قبل وتضرج وجهه بالدم وعلاه الطين فاوقف هناك، فاذا بسرقة اخرى تسب اليه هي سرقة كلب ابي نواس . وفي المحكمة بعثت المرأة المقعدة بمحاميتها لرفع شكواها امام الحاكم فغرم حسن خمسة دنانير وحكم عليه ثلاثة اشهر بالسجن .

من مباحج العيد

استيقظ عليوي في الفجر كما اعتاد ان يستيقظ كل صباح ، واول ما يبادر الى ذهنه ، هو ان يتعجل بالذهاب الى سوق الفضل ، لا يشتري لحماً وخضاراً كما هو المألوف لدى الناس ، وانما ليبيع هو نفسه سلعة رخيصة هي قوة عمله . يأتي بها كل صباح الى هذا السوق ويضعها على قارعة الطريق في غير ماتزينين ولا تجميل فيمر بها المشترون . يتفحصونها في غير رغبة ، ثم يشيخون عنها وجوههم . انها سلعة جافة متعبة لا تشبع الحاجة ..

لم يطل بعليوي الوقت ، فسرعان ما كانت قدماه في الطريق متجهة الى سوق العمل . كان عليه جلباب اسمر وسوخ تجمدت عليه قطرات العرق وتراكم عليه الطين حتى غدا لونه بلون (السيان) وقدماه حافيتان كبيرتان تنعمان بمقدار طيب من الوساخة ، واذ ما بلغ المكان المقصود تطلعت عيناه الى فوج من امثاله . جماعة من الحفاة البائسين احتشدوا وسط الطريق بين حوانيت باعة الفواكه والمرطبات واللحوم ، اندمج فيهم عليوي بعد ان همهم بشدة ليعلن لزملائه انه قد حضر ، وراح كل منهم يمني نفسه بالعمل في هذا اليوم المشرق بشمس الصيف المحرقة ، فيستطيع في اخر النهار ان يتذوق هذا الشرب الذي يبيعه الحاج كرومي او يستريح في دكان ابو محمد ريشا يشوي له سيخين من كبابه المشحم الدسم ، ان هؤلاء الباعة الذوو خبرة في استئصال الجوع وقتل دابره ولكنهم لا يطعمون الطعام على حبه وهذا ما لا

يحمدون عليه ، كل يطلب قروشاً بخسة وهذه القروش لا تتوفر الا لذي الحظ العظيم الذي يستأجره « الاسطوات » وارباب العمل ..

لكم يبدو محزناً منظر هذا الفوج المهزوم الجائع الذي يبني منازلنا ويشيد معاهدنا ومشافينا ، وعلى يديه الجبارتين تقام القصور والقلاع والعمارات ، يقفون هناك بقلوب واجفة مرتعبة وعيون زائغة متلصصة يخشون الخشية كلها ان يفلت هذا اليوم من اعمارهم كما انفلتت من قبل ايام وايام بغير كسب ولا اجر .

وعندما حضر « الاسطوات » وارباب العمل ، استعد فوج العاطلين لملاقاتهم بنظرات جامدة رصينة وبصدور مدفوعة الى الامام وبسواعد غليظة مكشوفة من تحت الجلابيب .. انهم يعرضون قوة اجسادهم كما تعرض الجواري مفاتهن في اسواق العبيد . ، كان عليوي واقفاً بين عاملين طويلي القامة متينى البناء ، فمر بهم رجل سمين متورد الوجه موفور الصحة لازال يتجشأ من فطور الصباح ، فجذب العاملين من ثيابهما وترك عليوي مبهوتاً ، اراد ان يتحرك فأشار اليه الرجل ان يحمد في مكانه ، فحمد خائفاً مذهولاً ..

في مساء ذلك اليوم انطلق عليوي في الطرقات يداري جوعه « بالونونة » الخافضة التي يبعث بها من بين شفقيه المطبقتين حتى انتهى الى ارض فسيحة مهجورة وجد عندها رجلا من اصدقائه القدماء يدق اوتاداً في الارض ويشد عليها حبلاً غليظة من الليف ليقيم اراجيح للعيد ، قال الصديق ، اشتغل معي يا عليوي ، غداً العيد وهنا منطقة تعج بأولاد الاغنياء والموسرين فالكسب موفور والربح كثير . ما عليك الا ان تدير دولاب الارجوحة وتقبض سبعة دراهم في نهاية النهار ..

امضي عليوي ليلة بهيجة بفردوسة المفقود الذي عثر عليه في الخربة

بعد غيبة وطول فراق ، وفي الصباح باشر عمله ، كان يوم عيد والدنيا تتراقص
في اعين الاطفال وقد تضاعف عدد باعة الطعام ، فأقسم ان عليوي يطعم هذا اليوم كل
الاكالات الشهية التي حرم منها زمناً ، كان عمله ان يدير ارجوحة كبيرة عالية
تأوه اخشابها وتتأود وتطلق قرقعات حزينة كأنها عربة مهشمة يجرها
حمار هزيل . .

تجمع حوله الاطفال يتصارخون ويتدافعون ، وقد ارتدوا ملابس
جديدة ، حمرا وخضرا ، وفي ارجلهم احذية صغيرة ضيقة لا يفتأون
يمسحونها بمناديلهم ، وفي قبضاتهم دراهم قليلة ينفقونها على مباهاج العيد . .
كان الجو حاراً والشمس قد الهبت الدنيا بنار كاوية محرقة تنصب
بحرارتها القاسية المتجاوزة حد الاحتمال على جلباب عليوي وتنفذ الى كل
جسمه فتجعله ينز عرقاً ، وبين اونة واخرى يرفع جلبابه ويمسح بأطرافه
الوسخة العرق الغزير الذي يتجمع على جبينه وعينه وتحت ابطيه كما يتجمع
البخار على غطاء المرحل ، تقدم اليه طفل جميل مدلل نظيف الملابس وضع
في كف عليوي عشرة فلوس وأشار اليه ان يصعده الى مقعد الارجوحة فامثل
لامر الطفل ، فدار الدولاب المهشم بقرقعاته وازيزه واخشابه المهلهلة التي
دقت على عجل ، واذا ما بلغت الارجوحة بالطفل الى الذروة وقع امر فظيع .
تهاوي المقعد من تحت الطفل وارتمت بشدة على الارض فسقط مغشياً عليه
والدماء تنزف من جبينه ورأسه ، فأنحنى عليوي الى الارض يتأمل برعب الدم
الغزير المتدفق ، احقاً هو الذي ارتكب هذا الجرم الكبير ، ثم مع من ؟ انه
من غير ريب ابن رجل موسر كبير . انتشرت في المكان زججرات وشتائم
فجمد عليوي في مكانه ينتظر العقاب ، استسلم بكليته للقدر ، فلو شاء طفل ما
ان يجره ويشده ويلقي به الى الارض ويدوس على عظامه فليس في مقدوره

ان يفعل شيئاً ، وسرعان ما جاء المؤدبون المنتقمون في حشد غاضب مهتاج من
النسوة المتزينات بفساتين العيد ، زعقن وصرخن وانحنين الى احذيتهم .
فتناوئنا وانزلن بها في غير رحمة على رأس عليوي وكفه وظهره وعينه فأحني
قامته لهن ليكون في وضع افضل لضربه ، واستطاع المسكين الفاقد لاي ضرب
من المقاومة والنجاة ان يرى من سيول العرق المتحدرة من كل اطراف
جسده سواعد النساء البيضاء المستديرة الملتمة بالاساور والمعاصم الذهبية
وانه والحق يقال لم يشهد ذراع امرأة ينكشف الى هذا الحد ، لقد نلن كثيراً من
جمجمته الخالية من الشعر وتركنا لطخاً حمراً على اضلاع صدره وفي كتفيه
اورثته اشد ، الالم ثم جاءت الشرطة وجرتة الى المركز ، كان احدهم يهتف
من وراء ظهره ، ما الذي فعلته يا مصخم انه ابن فلان . . . واندفع الاطفال . .
حتى اولئك الذين حملهم بيديه الى الارجوحة يصرخون ويضحكون ويبتهجون
بهذه المتعة الطارئة . . . واخيراً ادخل الى قفص التوقيف واغلق من دونه
الباب ، فشعر بمزيد من الحرارة في ذلك المكان وصعدت الى انفه روائح
ثقيلة حبيسة . كان معه كثير من اللصوص والسكران ، انبطحوا على الارض او
تعلقوا بالقضبان ثلاثة ايام العيد في هذا القفص ، يالها من متعة عيد بهيج . .

عامل قير

كان حطحوط يبحث عن عمل ، وهو شاب يافع في الخامسة والعشرين ، اسمر البشرة ارمـد العينين هرقلي القوة دمـث الخلق قـدم العاصمة منذ اسبوعين ، خاو جائع متشقق القدمين بالغ السذاجة والطيبة مخلقا في قريته النائية التي تبعد عن خط السكة زهاء ثلاث ساعات مشياً على الاقدام ، ابا يعمل فلاحاً لدى ملاك موسر يملك ارض القرية وما يحيط بها من مزارع واطيان ، يعيل هذا الاب خمساً من الاولاد والزوجة ، ان الحياة ليست سهلة لهذه العائلة ، بل عسيرة نكدية مفعمة كدأ ومشقة ، ولذا فقد هرب حطحوط من جورها وثقلها وحط رحاله في بغداد ، وأى شيء هي بغداد ، هي الدهليز الطويل المظلم الكئيب العاوي طيلة يومه بأبواق آلاف السيارات والمحشود بالآلاف البشر ضاجين صاخبين في ولولة وجوع وشماتة وجنون . .

تذوق حطحوط مرارة الجوع شاعراً انه اصيب باضعاف وطأته ايام كان في القرية ، فهو يتطلع في هذين الاسبوعين بملء باصريته المريضتين الى حوانيت الطعام وصحون الحلوى ولوالب اللحم المشوي المقطر سمناً وابخرة كراغ الغنم وجماجمها واضلاعها في شهية عارمة فتاكة ، ان الجوع قد ابهظه واستحلب ريقه ، انهم يقولون ان لاضيافة في بغداد ولمن يريد لها عليه ان ينكب على المزابل او ينافس الكلاب في نهش العظام .

انخرط حطحوط في زمرة المعذنين الاشقياء يقال لهم - عمال

التبليط - انخرط في هذا العمل بعد جهود وتوسلات ، فتعين عليه في اول يوم ان يحمل فوق رأسه علبة كبيرة مستديرة من الخشب يصبون فيها القير من الاتون الذي يجمونه فيه ثم يفرغه امام عمال آخرين يأخذونه بالذلك - بمشابك - تشبه مشابك الحبال حتى يقرشونه فوق الحصى والحجارة .

فهم حطحوط من يومه الاول ان هذا القير محرق مدمر اذا سقط منه شيء على جسد انسان اتلفه واحرقه وانتزع الجلد وسبب الماء وتشويهاً فظيعين . يحمل حطحوط العلبة الى زميل موكل اليه امر املائها . يتناول هذا القير بوعاء طويل ويملاً به العلبة فيتصاعد في تلك اللحظات دخان اسود قائم يتشرب تحت الانف ويتسرب الى الرئتين فيجعل التنفس امراً عسيراً ويملاً العينين فيدمعهما ويؤلمهما . يتحمل حطحوط هذه المضايقات كما يتحملها كل انسان ، فقد آخر خيط يربطه بالسعادة وانصبت جهود ذراعيه لتوفير الخبز للمعدة الجائعة ، يرفع العلبة بحذر شديد حريصاً ابلغ الحرص ان يجعلها قائمة على رأسه باستقامة وثبات ، وغالباً ما يناجي نفسه فيقول ترى ما الذي يحدث لو انكفأت العلبة فوق رأسي وتساقط علي هذا الجحيم المدمر ، انها لكارثة فادحة لا يمكن لاحد ان يطيل التفكير فيها دون ان يستبد بفؤاده الفزع . يمشي مشية مقيدة موزونة حتى يصل الى نقطة العمل فيفرغ محتويات العلبة ويعود مرة اخرى .

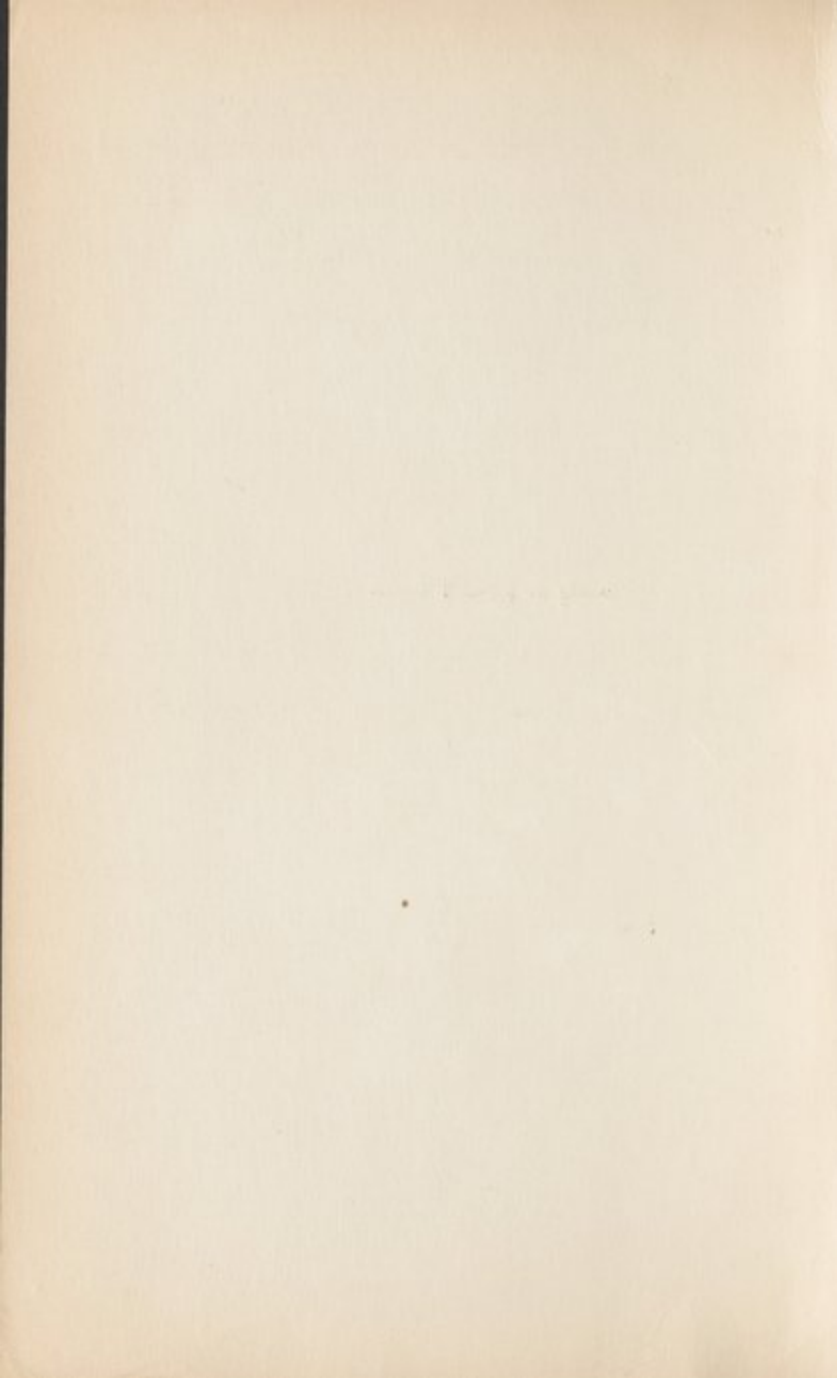
انقضت بضعة شهور وحطحوط ينقل غلب القير ويقبض خمسة دراهم في نهاية النهار فتتحول الى ارغفة الخبز واقداح الشاي وسقاط الفاكه المتعفنة لدى الباعة ، وحدث ان شغرت وظيفة الوقاد وكان اجرها ستة دراهم في اليوم فرشحوه لها لما كان يتمتع به من قوة عضلية ومثانة بناء استهوت رؤساءه فكان ذلك فوزاً عظيماً لحطحوط .

غدا من يومه ذاك يطعم الاتون بجذوع النخيل المتهرثة والزيت
الاسود المفرقع ، فيجعل اللهب يندلع والنار تشب وتتأجج ، فيتناول قضيباً
طويلاً من الحديد يحرك به القير المغلي المبقق بالادخنة والفقاعات ليساوي
بين جوانبه وطبقاته ، اما الدخان الكثيف المنتشر تحت انفه والنافذ الى قعر
رئته فلم يعبأ له حطوط ، كان يتراكم فوق جلبابه ورأسه وسائر جسده
فكأ به والقضيب جسم واحد اسود ، بعضه يتحرك ويشني وبعضه صلب جامد .
الا ان واجبات الوقاد لم تنته عند هذا الحد « الهين » بل يتعين عليه
ان يرعى القير في ساعات الليل فيغطيه بدثار سميك من الصفائح القصديرية
لئلا يتساقط عليه الندى فيبلله ويسلب حرارته ، ويتعين عليه ايضا ان يستيقظ
قبل انبلاج الفجر فيعالج النار الخامدة ويورث لبيها . كان هذا الشطر من
العمل يضايقه ويضجره ويحرم حطوط من ساعات نومه الهائلة التي يخلو
فيها الى احلامه ، انها احلام رجل ساذج قروي يعبر الحياة في صمت وهدوء
عبور دودة في شق خفي في جوف الارض . . يريد ان يتزوج من فتاة في
في قريته يحبها ويتمناها غير ان اهله يفرضون عليه « اتاوة » المرأة وانه يدبر
في ذهنه انجع الوسائل لتوفير هذه الاتاوة . .

غالباً ما يبهره تألق القمر في اول ساعات الليل فيحسب ان الفجر
موشك ان يطلع عليه ، وحيناً تغشه الظلمة وتخدعه فيغط في نومه حتى يقبل
العمال فيلقون القير بارداً وقد بلله الندى فيكرمونه بقسدر طيب من الشتام
والاهانات فيقبلها بصدر ضيق كظيم . .

ذات مساء انهمك العمال في تبليط شارع طويل ، فلازم حطوط
الاتون ساعات طويلة حتى هده التعب واحمرت عيناه ودمعته ، فأوى الى
فراشه يلتمس راحة النوم فأخذته غفوة ثقيلة حسبها حطوط كأنها الدهر

فهب من نومه مذعوراً . . ولم يدر احد اي قدر دفعه في تلك الساعة الى فتح
عينيه فأخذ ينظر بهما بقلق وحيرة وبلادة ، كاتتا تؤلماناه فيخيل اليه ان الوقت
قد ادرك وسرعان ما ينبلع الفجر ، الظلام الدامس يكتفه من كل جانب وغدت
الارض كالقيير سواداً ، فقام يمشي مترجاً مستعيناً على تبين طريقه بقوة التعود
كما يفعل الاعمى ، فوضع قدمه على حين غرة في مكان ما فلم تصل الارض بل
انغمست في سائل لزج مغلي اجتذب جسده كله ، فصرخ صرخة ألم واحدة
ضاعت في احشاء الليل الاسود ثم تهاوى كله في وسط القيير حتى غطس في
جوفه . وفي الفجر حضر العمال فوجدوا الاتون مفتوحاً وقطرات الندى قد
بللته فلعنوا حطحوط وسبوه ، وبعد بضع دقائق ترحموا على روحه عندما
كانت جثته المسودة المهترئة مسجاة على الارض ، فتساقطت في تلك اللحظات
دموع كثيرة حارة الا انها اقل حرارة من القيير الذي التهم صديقهم . .



مطبعة النجوم - بغداد

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 048347825

AP